الباب الأول

الإنسان فى التصور الإسلامى

obeikandl.com

obeikandl.com

(١)
القضية الكبرى

الإنسان هو الموضوع الذى نريد ـ بإذن الله ـ أن نتحدث عنه فى الصفحات التالية ، وهو موضوع يُعَدُّ من القضايا الكبرى فى هذا الوجود ، بل لا نبالغ ولا نعدو قول الحق إذا قلنا إن هذا الموضوع هو قضية القضايا فى هذا الكون الكبير . فالإنسان هو محور الوجود كله، وهو سَيِّدٌ فى هذا الكون : فكل شىء فى هذا الوجود مسخَّر له ، والديانات كلها جاءت من أجله ، والوحى السماوى كله قد اتجه بالخطاب إليه . والقرآن الكريم كله يدور حوله ، فكل ما فى القرآن الكريم إما حديث عن الإنسان أو حديث إلى الإنسان ، أو عن شىء يتعلق به بأى شكل من الأشكال .

وهذا يعنى أن موضوع الإنسان يُعَدُّ قضية القضايا فى هذا الوجود. ويبدو الأمر كما لو أن العالم بدون الإنسان لا توجد فيه قضية ، ولا تعكِّر صفوه مشكلة من المشكلات . وقد كان هذا هو تصوُّر الملائكة عندما أخبرهم الله سبحانه وتعالى بأنه يريد أن يخلق الإنسان . ويحكى القرآن الكريم عنهم قولهم فى هذا الشأن :

﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾[1].

فالعالم بدون الإنسان يُعَدُّ ـ فى منطق الملائكة ـ واحة سلام، بعيدة كل البعد عن المشكلات والمنغِّصات ، وظهور الإنسان فى هذا العالم سيكون سبباً فى تعكير صفوه ، وفى إدخاله فى دوامة صراعات لا تنتهى، تسيل فيها الدماء ، ويظهر فيها الفساد فى البر والبحر .

ولعل الملائكة قد قالوا ذلك على أساس ما أُتيح لهم من علم بطبيعة الإنسان ، كما أنهم من ناحية أخرى قد تصوروا أن ما يقومون به من تسبيح وتمجيد لله سبحانه وتعالى هو غاية الوجود التى ليس بعدها غاية أخرى .

ولكنْ أىُّ عالم هذا الذى لا يستطيع أن يعى نفسه ، ولا حيلة له من أمر نفسه ، ولا إرادة له فى تسيير أموره ؟ .. إنه يكون عالماً لا طعم له ولا لون .

ومن هنا كانت إرادة الله سبحانه وتعالى ـ الذى يعلم ما لا تعلمه الملائكة ـ أن يخلق كائناً يدرك نفسه ويدرك ما حوله ويدرك خالقه ، ويتولى مسئولية هذا الكوكب الأرضى بأمر الله وإرادته . وبذلك يكون للوجود معنى ، ويكون وجود الإنسان من أجل هدف حددته الإرادة الإلهية ، وهو العبادة لله وحده ـ كما يقول القرآن الكريم ـ :

---

(١) سورة البقرة : ٣٠ .

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ (١) .

ولكن هذه العبادة ليست مقصورة على التسبيح والتقديس الذى لا تعرف الملائكة شيئاً آخر سواه .

فالعبادة المقصودة هنا لها معنى أعمُّ وأشمل مما تصورته الملائكة ، إنها عبادة تفترض معرفة العابد لمعبوده . فهى قائمة على الوعى والإدراك ، والأهم من ذلك أنها قائمة على الاختيار من جانب العابد لمعبوده . وهذا أمر غير قائم بالنسبة للملائكة الذين ﴿ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾(٢) .

أما الإنسان فهو الكائن الوحيد فى هذا الكون الذى يستطيع أن يقول : لا ، حتى فى مواجهة الأمر الإلهى . ويخبرنا القرآن الكريم بذلك فى قوله : ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ (٣) . وفى قوله : ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ (٤) . وهنا نلحظ أن الله قد أسند المشيئة للإنسان نفسه الذى يستطيع أن يقرر مصيره بنفسه .

وهذا أمر ينسجم تماماً مع القانون القرآنى فى التغيير والذى يقول: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (٥) .

(١) سورة الذاريات : ٥٦ .
(٢) سورة التحريم : ٦ .
(٣) سورة البقرة : ٩٣ .
(٤) سورة الكهف : ٢٩ .
(٥) سورة الرعد : ١١ .

ومن هنا فإن أول القضايا التى يجب أن تُبحث والتى ينبغى أن تكون دائماً محور البحث هى قضية الإنسان ، فهى القضية الكبرى فى هذا الوجود وما عداها من قضايا ليس إلا تفريعات عن هذه القضية الكبرى . ومن أجل ذلك اهتم المفكرون والفلاسفة على مر العصور بهذا الموضوع الكبير، وكلٌّ أدلى بدلوه فى هذه القضية الأساسية .

فقد وجدنا الفلاسفة منذ القدم يعرِّفون الإنسان بأنه حيوان ناطق ، أى: كائن عاقل . ووجدنا الأخلاقيين يعرِّفون الإنسان بأنه حيوان أخلاقى، أى : كائن له قيم ، لأنه الوحيد فى هذا الوجود الذى له قيم يلتزم بها أو يُلزم نفسه بها . ووجدنا الاجتماعيين يقولون : الإنسان كائن اجتماعى ، ووجدنا علماء الدين يقولون : الإنسان كائن متديِّن ، لأنه لا يوجد على ظهر الأرض كائن له خاصية التديُّن إلا الإنسان . والواقع أن كل هذه الأوصاف ، وغيرها كثير ، تنطبق على الإنسان . وهكذا كان الإنسان ولا يزال وسيظل هو محور البحث والتفسير لدى الفلاسفة والمفكرين والعلماء فى مختلف التخصصات ، وفى كل العصور.

***

(٢)
(إنّى جاعل فى الأرض خليفة)

لقد بدأت قصة الإنسان فى هذا الوجود ـ كما يخبرنا الوحى السماوى ـ عندما خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان من طين ، أى : من مادة . ولو كان الأمر قد اقتصر على ذلك لما كان هناك أى سبب لتفضيل الإنسان على غيره من الكائنات . ولكن الله - جلَّت حكمته - أضاف إلى هذا الكائن المادى عنصراً روحيًّا آخر نسبه إلى نفسه . وهذا ما تعبِّر عنه الآية الكريمة :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ (١) .

فالإنسان هو الكائن الوحيد فى هذا الوجود الذى نفخ الله فيه من روحه . وقد كانت هذه النفخة الروحية الإلهية هى مناط التكريم الذى حظى به الإنسان . ومن أجل ذلك طلب الله سبحانه وتعالى من الملائكة أن يسجدوا لآدم تكريماً له ، ليس لأنه خُلق من طين ، ولكن لأن الله قد نفخ فيه من روحه . وقد رفض إبليس الأمر الإلهى وأَبَى واستكبر قائلاً - كما يحكى القرآن الكريم عنه فى ذلك قوله - :

﴿ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾(٢) .

(١) سورة الحجر: ٢٩ .

(٢) سورة الإسراء: ٦١ .

وهكذا كان رفض إبليس للسجود مبنيًا على نظرته الأحادية للإنسان بوصفه مخلوقاً من المادة فقط ، وغفل عن الجانب الآخر ـ وهو الجانب الروحى ـ والذى هو مناط التكريم فى الإنسان . ومن هنا يُعَدُّ إبليس ـ إلى يوم الدين ـ زعيم الماديين فى كل العصور ، الذين ينظرون إلى الإنسان نظرة مادية بحتة ، ولا يلتفتون إلى الجانب الروحى فيه والذى من أجله فضَّل الله الإنسان على غيره من الكائنات .

وهذه الثنائية فى تكوين الإنسان ـ والتى تتمثل فى عنصرى المادة والروح ـ تُعَدُّ علامة مميزة للإنسان ، وفى الوقت نفسه تُعَدُّ اختباراً وامتحاناً للإنسان . وعليه تقع مسئولية إقامة التوازن العادل بينهما . والإسلام لا يريد من الإنسان أن يغلِّب أحدهما على الآخر بطريقة تُخِلُّ بهذا التوازن ، وإنما يحرص على التوفيق بين مطالب الجسم ومطالب الروح فى تناسق رائع. فالإنسان له أن يتمتع بكل الخيرات التى أحلَّها الله له فى هذه الحياة ، وفى الوقت نفسه لا ينبغى له أن يهمل مطالب روحه . وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾(١).

وتلك هى وسطية الإسلام ، والذى يجتاز هذا الاختبار الصعب بنجاح يكون جديراً حقًّا بهذا التكريم الإلهى الذى لم يَحْظَ به كائن آخر غير الإنسان .

---

(١) سورة القصص : ٧٧ .

وبعد التكريم الإلهى للإنسان بسجود الملائكة له ، وبتعليم آدم الأسماء كلها ، أهبطه الله سبحانه وتعالى إلى الأرض لحكمة أرادها ، ليعمر هذه الأرض بعد أن سلَّحه بالأدوات التى تعينه على أداء وظيفته فى هذه الحياة حتى يحقق مفهوم العبادة لله وحده فى هذا الوجود .

ومن هنا كان الإنسان جديراً بأن يكون خليفة فى الأرض ، كما يعبِّر القرآن الكريم عن ذلك بقول الله تعالى للملائكة :

﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (١) .

وهكذا اقتضت المشيئة الإلهية أن تجعل من الإنسان وكيلاً عن الله فى الأرض ، ليحقق فيها إرادة الله بإعمارها بالخير المادى والمعنوى من أجل خير البشرية جمعاء . وهذا يعنى أنه ينبغى على الوكيل أن يلتزم بأوامر موكِّله واجتناب نواهيه ، وأنه لا يجوز له بأى حال من الأحوال أن يستبدَّ بالأمر بعيداً عن تعليمات موكِّله . ومن جانب آخر فإن على الوكيل أن يتخلَّق بأخلاق موكِّله فى كل تعاملاته وإلا لم يكن أهلًا لهذه الخلافة . ومن هنا يقول الحديث الشريف : «تَخَلَّقُوا بِأَخْلَاقِ اللَّهِ» . فإذا كان الله قد أمر بالعدل وكتب على نفسه الرحمة فإن على الوكيل أن يتخلَّق بخُلق الرحمة ، وأن يقيم العدل بين الناس ، حتى ولو على نفسه أو الأقربين . وهكذا الشأن فى بقية الصفات الإلهية التى ينبغى على

(١) سورة البقرة : ٣٠ .

الإنسان أن يتمثلها ، ويسير على هداها ، ويتأسّى بكل ما تحمله من معانى الحق والخير والجمال .

وحتى يصل الإنسان إلى هذه المرتبة فإن عليه أن يعمل على استقامة صِلَاته بنفسه وبالله وبالناس وبالعالم الذى يعيش فيه ، الأمر الذى يؤدى إلى أن يصبح بحق جديراً بأن يكون وكيلاً عن الله فى الأرض يُقيم فيها موازين العدل ، ويُرسى دعائم الحق ، ويزرع الخير الذى تعود ثمرته على الآخرين . وهذا ما ينبغى على هذا الوكيل أن يفعله إلى آخر نَفَس فى حياته وإلى يوم القيامة ، كما ورد فى الحديث الشريف : « إِذَا قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِى يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَلَّا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ »(١) .

❁ ❁ ❁

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده ، من حديث أنس بن مالك .

(٣)

(وخُلِقَ الإنسان ضعيفاً)

هناك مفارقة غريبة فى تكوين الإنسان . فقد بيّن لنا القرآن الكريم أن الإنسان قد خُلق ضعيفاً وأن الذباب لو سلبه شيئاً لا يستطيع أن ينقذه منه. ولكنّ الإنسان فى الوقت نفسه يتصور فى ظروف معينة أنه من القوة والجبروت بحيث يستطيع أن يُخضع كل شىء لإرادته وسطوته . وأحداث التاريخ ووقائع الحياة تبيّن لنا أن بعض الناس من الملوك أو الحكام أو من غيرهم كان يشعر بهذا الشعور ويزهو بقوته ويتصور أنه ليس هناك من هو أقوى منه فى هذا الوجود ، مثلما فعل فرعون حين قال : ﴿ **أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ** ﴾ [١] ، وقوله مبرهناً على هذه القوة : ﴿ **أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي** ﴾ [٢] . وقول قارون مزهوًا بقوته التى تتمثل فى غناه : ﴿ **إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي** ﴾ [٣] ، وأمثال ذلك كثير .

---

(١) سورة النازعات : ٢٤ .

(٢) سورة الزخرف : ٥١ .

(٣) سورة القصص : ٧٨ .

فكيف يمكن التوفيق بين ضعف الإنسان الذى أشار إليه القرآن الكريم، وسلوك الإنسان المُدِلِّ بقوته وجبروته وسطوته ؟

إننا من خلال عقد مقارنة سريعة بين الإنسان من جانب وبين الحيوانات من جانب آخر ، يتضح لنا ابتداءً مدى ضعف الإنسان إزاء فصائل الحيوانات المختلفة ، التى يتفوق بعضها على الإنسان فى كثير من الأمور التى تجعلها قادرة على الحفاظ على حياتها وعلى وجودها ، فى حين يفتقد الإنسان كل هذه الأمور أو بعضها ، الأمر الذى يجعله فى وضع أضعف منها كثيراً .

فقدرة الإنسان مثلاً على الإبصار وعلى السمع والشَّمِّ محدودة بالقياس إلى بعض الحيوانات التى تستطيع أن تسمع وترى وتشمَّ إلى مسافات بعيدة، ثم إن طفولة الإنسان طويلة بالقياس إلى بعض الحيوانات التى تستطيع أن تقف على رجليها بعد الولادة بساعات وتعتنى بنفسها . ولكن الإنسان حَمْلُهُ وفِصَالُهُ ثلاثونَ شهراً ، وبعد ذلك لا يستطيع أن يعتمد على نفسه ، بل يظل فى حاجة إلى عناية ورعاية مدة طويلة . وبالإضافة إلى ذلك نجد أن هناك كثيراً من الحيوانات لديها أسلحة طبيعية تدافع بها عن نفسها متمثلة فى المخالب والأنياب التى تجعلها قادرة على حماية نفسها والدفاع عن وجودها ضد أعدائها فى حين أن الإنسان ليس لديه شىء من ذلك .

وفضلاً عن ذلك فإن كثيراً من الحيوانات ـ أو كلها ـ قد خلقها الله سبحانه وتعالى قادرة على تحمُّل تقلُّبات الجو من الحر والبرد ، ولكن الإنسان إذا تُرك عارياً تحت وطأة التقلبات الجوية فإنه يموت[1] .

وعلى الرغم من هذه المفارقة فقد استطاع الإنسان أن يُخضع كل ما فى هذا الوجود لإرادته : استطاع أن يستأنس الحيوانات المفترسة ، وأن يغيِّر شكل الحياة على الأرض ، وأن يصنع حضارات متتالية على مدى التاريخ ، وأن يُحدث ثورات هائلة فى عالم الصناعات والاتصالات والمعلومات والتكنولوجيا . ولم يكتفِ بأن يكون مجال نشاطه مقتصراً على الكوكب الأرضى ، بل راح يبحث ويقتحم عالم الفضاء .

وباختصار : يمكن القول بأن الإنسان قد استطاع أن يتغلب على كل الصعاب التى صادفته فى هذا الوجود . وقد تيسَّر له ذلك بفضل شىء واحد امتاز به على كل أنواع الحيوانات المختلفة ، وهو العقل الذى وهبه الله إيَّاه . وهذا يعنى أن الإنسان إذا كان فى موقف الضعيف من الناحية البدنية فإن قوته من الناحية العقلية لاتقارن بقوة الحيوانات . والجانب العقلى فى الإنسان هو أثر من آثار النفخة الإلهية الروحية فى الإنسان والتى من أجلها استحق التكريم الإلهى والتفضيل على غيره من الكائنات .

---

(١) راجع : مدخل إلى الفكر الفلسفى ، لبوخينسكى ، ومن ترجمتنا . ص ٩٢ ـ دار الفكر العربى ـ ١٩٩٦م ، القاهرة .

ومن ذلك يتضح أن القوة المادية ليست هى كل شىء فإنها لا تقارن بأى حال من الأحوال بالعقل الإنسانى الذى يستمد منه الإنسان القوة الحقيقية . فالقوة المادية بدون العقل قوة غاشمة لا تعرف الحق من الباطل ولا تميِّز بين الصواب والخطأ . والإنسان ـ خليفة الله فى الأرض ـ مُطَالَبٌ بتحكيم عقله فى كل أموره . وإذا فعل ذلك فهو قوىٌّ حتى ولو كان ضعيفاً من الناحية المادية .

وقد أراد الله سبحانه وتعالى – حين لفت نظرنا إلى ضعف الإنسان البدنى – أَلَّا نغترَّ بالقوة المادية ، فهى قوة زائفة إذا غاب عنها العقل . فإذا صاحبها العقل كانت قوة تبنى ولا تهدم ، وتعمِّر ولا تخرِّب ، وتقيم موازين الحق والعدل بين الناس . ومن هنا كان قول أبى بكر الصِّدِّيق – رضى الله عنه – : « القَوِىُّ فِيكُمْ ضَعِيفٌ عِنْدِى حَتَّى آخُذَ الحَقَّ مِنْهُ ، والضَّعِيفُ فِيكُمْ قَوِىٌّ عِنْدِى حَتَّى آخُذَ الحَقَّ لَهُ »(١) .

* * *

(١) ابن الجوزى : صفة الصفوة ـ تحقيق : سعيد اللحّام ـ ط دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٩م (ج ١/ ١٣٥، ١٣٦) .

(٤)
(ولقد كرّمنا بنى آدم)

لقد سبق أن أشرنا إلى أن الله قد كرّم آدم ـ الذى يمثل النوع الإنسانى ـ بأن نفخ فيه من روحه وأَسْجَدَ له ملائكته . ومن أجل ذلك فضَّل اللهُ الإنسانَ على كثير من مخلوقاته ، كما جاء فى الآية الكريمة :

﴿ ولَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ والْبَحْرِ ورَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ (١) .

والكرامة المقصودة هنا عامة لكل البشر رجالاً ونساءً بصرف النظر عن أجناسهم وألوانهم ومعتقداتهم . والإنسان الذى منحه الله الكرامة لا يجوز له أن يفرِّط فيها بأى شكل من الأشكال . ومن جانب آخر لا ينبغى لأحد أن يتعرض بالإهانة لإنسان آخر كرّمه الله ، لأن ذلك يُعَدُّ عدواناً فى حق الله من ناحية ، وفى حق الشخص الذى وقعت عليه الإهانة من ناحية أخرى .

وهذه الكرامة التى اختص الله بها الإنسان دون غيره من الكائنات ذات أبعاد مختلفة ، فهى حماية إلهية للإنسان تنطوى على احترام عقله

(١) سورة الإسراء : ٧٠ .

وحريته وإرادته ، وتنطوى أيضاً على حقه فى الأمن على نفسه وماله وذريته. ومن أجل ضمان الحماية الإلهية للإنسان حددت الشريعة الإسلامية لنفسها مقاصد خمسة لتأكيد هذه الحماية وهى : حفظ النفس، وحفظ الدِّين ، وحفظ العقل ، وحفظ المال ، وحفظ النسل [1] . فهذه المقاصد الخمسة تهدف كلها إلى حماية الإنسان الذى كرَّمه الله سبحانه وتعالى ، وتمثل القواعد الأساسية لحقوق الإنسان .

فالنفس الإنسانية لا يجوز الاعتداء عليها بأى حال من الأحوال . وقد جعل الإسلام الاعتداء على فرد واحد من أفراد البشرية بمثابة اعتداء على البشرية كلها ، وفى المقابل جعل تقديم الخير لفرد واحد من أفراد البشرية بمثابة تقديم الخير للإنسانية كلها . ويعبّر القرآن الكريم عن ذلك بقوله :

﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [2] .

أما حفظ الدين فإنه يعنى حماية المعتقد الدينى . ومن هنا فإنه لايجوز إرغام أحد على الدخول فى دين من الأديان أو الخروج منه ، لأن الإكراه على اعتناق دين من الأديان يُنتج منافقين لا مؤمنين . ومن هنا

(١) انظر : الموافقات للشاطبى (ج٢ص ١٠) - دار المعرفة - بيروت .
(٢) سورة المائدة : ٣٢ .

كان المبدأ القرآنى الواضح فى حرية العقيدة: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ﴾[1].

وأما حفظ العقل فإنه يعنى ضمان أدائه لوظيفته . ومن هنا فإنه لا يجوز إعاقته بأى شكل من الأشكال عن القيام بوظيفته . ومن أجل ذلك يحمى الإسلام حرية الرأى والفكر مادامت لا تضرُّ بصالح المجتمع ولا بالنظام العام ، انطلاقاً من القاعدة النبوية « لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ »[2] .

أما حفظ المال فإنه يعنى حماية الإسلام للملكية الخاصة . ويعتبر الذى يُقتل دفاعاً عن ماله أو دمه أو عرضه من الشهداء . والنبى ﷺ يقول: « كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ : دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ »[3] .

وأما حفظ النسل فإنه يعنى حفظ النوع الإنسانى ، كما يعنى أيضاً حفظ الأنساب وحمايتها من الاختلاط ، وما يترتب على ذلك من صلة الأرحام ، وتحريم زواج المحارم ، وغير ذلك من أمور نصّت عليها الشريعة الإسلامية .

ومن ذلك كله يتضح لنا أن التكريم الذى اختص الله به الإنسان لم يَحْظَ به أى كائن آخر فى هذا الوجود ، لأن الإنسان هو الكائن الوحيد الذى جعله الله سبحانه وتعالى خليفة فى الأرض . ومن أجل ذلك فإن

---

(١) سورة البقرة : ٢٥٦ .

(٢) رواه ابن ماجه فى سننه ، ومالك فى الموطأ .

(٣) رواه مسلم فى صحيحه – كتاب : البر والصلة والأدب ، باب : تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله ، ورواه أبو داود فى سننه – كتاب : الأدب ، باب : فى الغيبة .

على الإنسان أن يدرك أبعاد هذا التكريم جيداً وأن يحافظ عليه ويتمسك به ، ويحميه من العدوان عليه بأى صورة من الصور . والتفريط فى هذا التكريم الإلهى يشدُّ الإنسان بعيداً عن العنصر الروحى الذى منحه الله للإنسان ، والذى يمثل حلقة الوصل التى تربط بين الله والإنسان . ومن هنا يُعَدُّ الحفاظ على هذا الرباط حفاظاً على التكريم الإلهى للإنسان ، وفى الوقت نفسه يُعَدُّ حفاظاً على كل القيم الإنسانية النبيلة التى تضمن قيام المجتمع الصالح الذى يتعاون أفراده على نشر كل ما من شأنه أن يعود بالخير على الإنسان فى كل زمان ومكان .

* * *

(٥)
العقل الإنسانى

لقد سبق أن أشرنا إلى أن العقل الإنسانى يُعَدُّ مناط التكريم الإلهى . فهو العنصر الجوهرى الذى يمتاز به الإنسان عن جميع الحيوانات ، والذى به يدرك نفسه ويدرك الكون من حوله ويدرك خالقه . ومن هنا يُعَدُّ العقل نعمة كبرى من نعم الله على الإنسان فى هذا الوجود .

ومن أجل ذلك لا يجوز للإنسان أن يعطِّل العقل عن أداء وظيفته ، مثلما لا يجوز له أن يعطِّل جارحة من الجوارح التى أنعم الله بها على الإنسان عن أداء وظيفتها مثل اليد والرِّجْل والعين والسمع والشَّمِّ.... إلخ . فهذه كلها جوارح خلقها الله للإنسان لتؤدى كل منها وظيفة معينة ، والعقل خلقه الله تعالى أيضاً للإنسان ليؤدى وظيفة معينة ، فتعطيله عن أداء وظيفته يُعَدُّ تعطيلاً لنعمة من نعم الله تعالى عن أداء وظيفتها .

ولهذا يعبِّر القرآن الكريم عن هؤلاء الذين يعطِّلون عقولهم عن التفكير ويصمُّون آذانهم ولا يبصرون أو لا يريدون أن يبصروا ما حولهم ـ يعبِّر القرآن الكريم عن هؤلاء بقوله : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ

يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ ﴾ (١) ..

ولو كانت الآية قد وقفت عند هذا الحد لكان فى ذلك ظلم للأنعام، لأن الأنعام لا تعقل . ومن هنا كانت تكملة الآية :

﴿ أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ (٢) .

فهم أقل مرتبة من الحيوانات ، لأن الإنسان الذى يعطِّل عقله عن التفكير هو إنسان قد تنازل عن إنسانيته . ومن هنا لا يستحق أن يطلق عليه وصف الإنسان لأنه ارتضى لنفسه أن يكون فى مرتبة أقل من مرتبة الحيوان .

والقرآن الكريم يخبرنا بأن عدم استخدام العقل يُعَدُّ ذنباً من الذنوب التى سوف يُسأل عنها الإنسان يوم القيامة . ومن هنا يشير القرآن الكريم إلى أن الكفار سوف يلومون أنفسهم يوم القيامة لأنهم لم يستخدموا عقولهم فى الدنيا :

﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا فِى أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ ﴾ (٣) .

ولهذا كانت دعوة القرآن الكريم للإنسان لاستخدام مَلَكاته الفكرية

(١ ، ٢) سورة الأعراف : ١٧٩ .
(٣) سورة الملك : ١٠ ، ١١ .

دعوة صريحة لا تقبل التأويل . فالتفكير فى الإسلام يُعَدُّ واجباً دينيًّا وفريضة إسلامية . ولذلك قرر ابن رشد أن الشرع قد أوجب النظر بالعقل فى الموجودات واعتبره واجباً شرعيًّا ؛ وذلك أخذاً من الآيات القرآنية العديدة فى هذا الشأن .

وإذا كانت ممارسة الوظائف العقلية تُعَدُّ واجباً دينيًّا فى الإسلام فإنها من ناحية أخرى تُعَدُّ مسئولية حتمية لا يستطيع الإنسان الفكاك منها . وسيُحاسَب على مدى حسن أو إساءة استخدامه لها مثلما يُسأل عن استخدامه لباقى وسائل الإدراك الحسية . وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ (١).

ومن منطلق حرص الإسلام على ممارسة العقل لوظائفه التى أرادها الله كان حرص الإسلام شديداً على إزالة كل العوائق التى تعوق العقل عن ممارسة نشاطاته . ومن أجل ذلك طالب بتحطيم هذه العوائق ليشقّ العقل طريقه للفهم الصحيح والتفكير السليم . ويتجلى لنا ذلك بوضوح من رفض الإسلام للتبعية الفكرية والتقليد الأعمى . فالتقليد ضلال يُعذر فيه الحيوان ولكنه لا يصحُّ بحال من الأحوال من الإنسان القادر على التفكير والتمييز .

---

(١) سورة الإسراء : ٣٦ .

وكما رفض الإسلام التقليد الأعمى رفض أيضاً كل أساليب الدجل والشعوذة والاعتقاد فى الخرافات والأوهام . كما قرر المسئولية الفردية التى تقوم على حرية الفرد واطمئنانه إلى حقوقه فى الأمن على نفسه وعقله وماله. وقد جعل الإسلام الأمن على العقل من بين المقاصد الضرورية الأساسية التى قصدت إليها الشريعة الإسلامية لقيام مصالح الدين والدنيا . وكذلك حرَّر الإسلام الفرد المؤمن بعقيدة التوحيد من عقدة الخوف من الجهر بالحق . فالمؤمن لا يخشى فى الحق لومة لائم .

وهكذا كفل الإسلام للإنسان المناخ الحقيقى الذى يستطيع فيه أن يفكر ويتأمل ويعى ويفهم . وبهذا أطلق الإسلام سلطان العقل من كل ما كان يقيِّده ، وخلَّصه من كل تقليد كان يستعبده . وبهذا ـ كما يقول الشيخ محمد عبده ـ تم للإنسان بمقتضى دينه أمران عظيمان طالما حُرم منهما وهما : استقلال الإرادة واستقلال الرأى والفكر [1] . وقد كان لهذا الموقف الأساسى للإسلام من العقل أثره العظيم فى صياغة الحضارة الإسلامية والعقلية الإسلامية .

* * *

(١) رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده ص ١٣٣ (دار إحياء العلوم ـ بيروت ١٩٧٩م) .

(٦)
كائن مكلَّف وكون مسخَّر

لقد خلق الله نوعين من الكائنات أحدهما مكلَّف وهو الإنسان والآخر مسخَّر لهذا الإنسان وهو الكون الذى نعيش فيه . وهذا يعنى أن الإنسان كائن متميز يُعَدُّ نَسِيجَ وَحْدِهِ ، بما لديه من صفات ينفرد بها وبما حباه الله من قدرات ومَلَكات تؤهله للقيام بالمهمة التى كُلِّفَ بها . وتتسق هذه القدرات والملكات مع ما حددته المشيئة الإلهية لهذا الكون من قوانين .

وتكليف الإنسان بتحميله مسئولية هذا الكون ومنحه شرف الخلافة فى الأرض لم يكن إجباراً من الله للإنسان . وإنما جاء نتيجة اختيار من الإنسان نفسه . فقد علم الله فى الأزل ما الذى سيفعله الإنسان عندما تُعرض عليه مسئولية التكليف . ويخبرنا القرآن الكريم بذلك فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّا عرضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ (١).

(١) سورة الأحزاب : ٧٢ .

والتكليف لا يكون إلا على أساس من الحرية . فأمانة التكليف والمسئولية عن هذا الكون كله مهمة كبيرة . وهى شاملة لكل شىء يؤتمن الإنسان عليه ، وليست مقصورة على بعض الأمور الجزئية كما ورد فى بعض كتب التفسير . وتشمل هذه الأمانة الكبرى ـ بطبيعة الحال ـ كل الأوامر والنواهى الدينية المتعلقة بصلة الإنسان بنفسه أو بخالقه أو بسائر البشر .

وهذا الشمول يتفق تماماً مع آية تسخير الكون كله للإنسان والتى سنوردها بعد قليل . وقبول الإنسان تحمُّل هذه الأمانة الكبرى والقيام بحقها دليل على حريته فى الاختيار إيجاباً أو سلباً . ولكن القرآن يشير إلى أن الإنسان بقبوله تحمُّل هذه المسئولية كان متسرعاً لم يفكر فى العواقب التى تترتب على ذلك . وقد عبَّر القرآن عن ذلك بقوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ أى أنه كان ظلوماً لنفسه جهولاً بعاقبة أمره .

وقد بيَّن الله للإنسان المجال الذى سيمارس فيه هذه المسئولية الكبرى من منطلق حريته . وهذا المجال هو الكون كله . وقد جاء ذلك فى قوله تعالى :

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١) .

---

(١) سورة الجاثية : ١٣ .

إن الإنسان ـ إذن ـ ليس ذرّة تافهة فى هذا الوجود وإنما هو سَيِّدٌ فى هذا الكون كلّفه الله ـ بعد أن اختار لنفسه ـ بتحمُّل مسئولية هذا الكون . وتحمُّل المسئولية يتطلب الأمانة فى إدارة هذا الكون الكبير .

وهذا يعنى أن على الإنسان فى إطار تحمُّله لهذه الأمانة الامتناع عن كل ما من شأنه أن يجلب الضرر بأى شكل من الأشكال لهذا الكون بما فيه من كائنات ومن فيه من البشر ، فإذا أساء الإنسان استخدام هذه الأمانة فستكون العاقبة وخيمة عليه وعلى غيره من الكائنات الأخرى حيةً كانت أم غير حية .

وإذا أردنا أن نتعرف على ما يمكن أن تسببه إساءة استخدام هذه الأمانة فعلينا أن نتذكر الخرق الذى بدأ يتسع فى طبقة « الأوزون » وما يمكن أن يتسبب عن ذلك من مخاطر للبشرية كلها إذا لم تتدارك أخطاءها وتتلافى الأسباب المؤدية إلى هذه المخاطر .

ولنتأمل فقط بعض المشكلات التى تحيط بعالمنا المعاصر من تلويث للبيئة وظهور أمراض فتاكة لم تكن معروفة من قبل مثل أمراض نقص المناعة أو الإيدز ، وأسلحة الدمار الشامل وما تسببه من كوارث لحياة الناس وللبيئة التى تحيط بهم ، ناهيك عن الإشعاعات الذرية والكوارث التى تتسبب فيها والتهديدات المستمرة للحياة والأحياء على هذا الكوكب الذى نعيش فيه . كل هذه بعض الأمثلة لسوء استخدام الأمانة .

إن على الإنسان أن يفى بمسئولياته . وفى الوقت نفسه لا يجوز له أن يستهين بقدراته ومَلَكاته التى تعينه على حمل الأمانة والوفاء بحقها . وعلى الرغم من أن الإسلام يركز دائماً على المسئولية الفردية ويؤكد أنه لا تَزِرُ وازرةٌ وِزْرَ أخرى ، وأن مَنْ عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ، فإنه من ناحية أخرى يحمِّل كل فرد أو جماعة مسئولية منع العبث بمصير هذا العالم كلٌّ فى حدود طاقته . فعدم الاكتراث واللامبالاة يجعل الفرد مسئولاً مسئولية مشتركة مع المتسبب فى هذا العبث ، وذلك من منطلق حرص الإسلام على ضرورة المشاركة الإيجابية فى توفير كل وسائل الأمن والأمان والسلام والاستقرار لهذا العالم الذى هو عالمنا جميعاً .

إن العبث بأى شكل من الأشكال بمصير هذا العالم وبالبيئة التى تحيط بنا ، سواء صدر هذا العبث من فرد أو جماعة ، وسواء صغر هذا العبث أو كبر ، يُعَدُّ مُنْكَراً وجُرْماً يندرج ضمن المنكرات التى حث النبى ﷺ على مكافحتها فى قوله : « مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَراً فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ »[1].

* * *

(١) رواه مسلم فى صحيحه ـ كتاب : الإيمان ـ باب : بيان كون النهى عن المنكر من الإيمان .

(٧)

(عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)

عندما خلق الله آدم ـ عليه السلام ـ وكرّمه بأن نفخ فيه من روحه وأَسْجَدَ له ملائكته زوّده بعلم « الأسماء كلها » . وهذا يعنى أن الله قد سلّحه بالعلم الضرورى الذى هو فى حاجة ماسّة إليه للقيام بالمهمة التى ادخرها الله له عندما يتقرر هبوطه إلى الأرض لإعمارها .

ويختلف هذا العلم تماماً عن العلم الذى علّمه الله للملائكة نظراً لاختلاف المهمة المكلّف بها كل من الفريقين . ولذلك عندما عرض هذا العلم على الملائكة ـ كما جاء فى الآية الكريمة ـ :

﴿ وعلَّم آدم الأَسْماء كُلَّهَا ثُمَّ عرضَهُمْ على المَلاَئِكَة فقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاَءِ إن كُنتُمْ صادِقِينَ ﴾ (١) .

كان رد الملائكة على ذلك : ﴿ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إلاَّ ما علَّمْتَنَا إِنَّكَ أنت الْعليمُ الْحكيمُ ﴾ (٢) .

---

(١) سورة البقرة : ٣١ .

(٢) سورة البقرة : ٣٢ .

obeikandi.com

وهذا العلم الذى سلّح الله به الإنسان هو العلم الذى يتناسب مع قدرات الإنسان ومَلَكاته ، وهو العلم الذى يفيد فى إعمار الأرض وصنع الحضارة فيها ، وهذا علم لا حاجة للملائكة إليه . ومن هنا أعلنت الملائكة عدم معرفتها به . فكلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ له . وليس معنى ذلك أن الإنسان منذ اللحظة الأولى قد كُشف له عن كل أسرار العلم ، وإنما المقصود هو أن الله قد أعطاه مفاتيح العلم وعليه أن يبذل جهده فى التعرف على كنوز هذا العلم . وعلى قدر جهده ينكشف له بالتدريج بعض مغاليق هذا الوجود . وسيظل الأمر كذلك إلى قيام الساعة . فالعلم بحر لا شاطئ له .

وعندما نزل الوحى القرآنى على محمد ﷺ جاءت الآيات الخمس الأولى مشتملة على الأمر بالقراءة مرتين ، وعلى الإشادة بالعلم ، وبالقلم الذى هو وسيلة تدوين العلم . وذلك فى قوله تعالى :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ① خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ③ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾(١).

والقراءة هنا تعنى قراءة الكتاب المسطور وهو القرآن الكريم الذى يحمل المنهج الإلهى للإنسان ، وتعنى أيضاً قراءة الكتاب المفتوح وهو الكون الكبير . كما جاء فى قوله تعالى :

---

(١) سورة العلق : ١ ـ ٥ .

﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ (١) .

وهكذا الأمر بالنظر يعنى دراسة ما يشتمل عليه هذا الكون من آيات إلهية ، واكتشاف القوانين التى تحكم مسيرته ، والبحث عن أفضل السبل التى تضمن حسن استغلاله من أجل خير البشرية جمعاء .

وهنا يمكن أن نلحظ أن هناك ربطاً حكيماً بين تزويد الإنسان الأول بالعلم والعودة مرة أخرى إلى التأكيد على العلم فى الوحى الأخير للبشرية. وهذا الربط لم يأتِ من فراغ . إنه يعنى استمرار التكليف الإلهى الأول للإنسان بمهمة إعمار الأرض ماديًا ومعنويًا ، الأمر الذى يؤكد أن رسالة الدين هى الإعمار والبناء والعمل من أجل الخير والحق والسلام .

وهذا يعنى أن الدين قد جاء لمصلحة الإنسان ومن أجل خيره وسعادته فى دنياه وأخراه . وبين التعليم الأول لآدم والوحى الأخير لمحمد سارت البشرية خطوات كبيرة فى سُلَّم الإعمار وصنع الحضارة ، ولكنَّ ذلك لم يكن نهاية الطريق ولن يكون . فالطريق أمام البشرية لايزال طويلاً ، والكشف عن آيات الله فى الكون وفى الإنسان سوف يستمر إلى قيام الساعة .

ومن الواضح أن هذا الربط الوثيق بين هذين التعليمين يبيِّن للإنسان مدى الأهمية الكبيرة للعلم الإنسانى فى مسيرة البشرية . ومن هنا وجدنا

---

(١) سورة يونس : ١٠١ .

القرآن الكريم يوصى محمداً ﷺ بأن يدعو ربه الاستزادة من العلم : ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (١) . وفى ذلك حفز لنا على السير على منواله والاقتداء به .

ومن الأقوال التى تعلمناها من تراثنا وسارت سير الأمثال ، ذلك القول المشهور : [العلم من المهد إلى اللّحد] . فليس هناك أحد يستطيع أن يزعم أنه قد وصل إلى نهاية طريق العلم . فالواقع يبين لنا أنه كلما اكتشف العلماء جديداً اتسعت أمامهم مساحة الجهل . وهذا أمر يحفزهم دائماً إلى طلب المزيد من العلم .

وقد أشار القرآن الكريم إلى أن العلماء هم أخشى الناس لله ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (٢) ، لأنهم الذين يدركون أكثر من غيرهم أسرار الخَلْق وعظمة الكون وجلال الخالق .

والعلم المقصود هنا علم شامل ، ولا يقتصر على جانب واحد من جوانب الحياة، وإنما هو علم ينسحب على كل شىء فى هذا الوجود . ولا يوجد فى الإسلام حدود للبحث العلمى ، وليس هناك حَجْرٌ على العقل الإنسانى فى مسيرته العلمية . ولكن القضية التى يدور حولها الخلاف تتمثل فى أسلوب استخدام الإنسان للعلم واكتشافاته . فالطاقة الذرية ـ مثلاً ـ اكتشاف خطير ولكن الإسلام لا يرفضه ، وإنما

(١) سورة طه : ١١٤ .
(٢) سورة فاطر : ٢٨ .

يرفض استخدامه فى تدمير البشرية ، ويشجّع على استخدامه فى كل النواحى السلمية التى تتفق والمصالح الحقيقية للإنسان .

وتأكيداً من الإسلام على فضل العلم وأهميته جعل طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، وهى فريضة لا تقلُّ فى أهميتها عن فريضة الصلاة والصوم والحج .... إلخ . فالعلم بالإضافة إلى ما يكشفه للإنسان من وسائل لتطوير الحياة على هذا الكوكب الأرضى فإن من شأنه أن يعمّق الإيمان ويرسّخه فى النفوس ـ كما يقول القرآن الكريم ـ :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾[1] .

* * *

(١) سورة فصلت : ٥٣ .

obeikandl.com

(٨)

الإرادة الإنسانية

لقد سبق أن أشرنا إلى أن المشتغلين بالأخلاق قد وصفوا الإنسان بأنه حيوان أخلاقى أى : كائن له قيم يلتزم بها أو يُلزم نفسه بها . وهذا يعنى قدرته على اختيار سلوك يتفق مع القيم الأخلاقية أو سلوك يتناقض معها . وعلى الرغم من أن هناك بعض العوامل المؤثرة فى تكوين أخلاق الإنسان مثل الوراثة والبيئة فإنه ليس معنى ذلك أنها تسلب اختيار الإنسان وحريته.

إننا نشعر فى نفوسنا بها لنا من حرية الاختيار فى أقوالنا وأفعالنا . ولولا أن إرادة الإنسان حرة فى اختيار الخير أو الشر لكانت التكاليف الأخلاقية والأمر والنهى ضرباً من العبث ، ولما كان هناك معنى لما جاءت به الأديان من الثواب والعقاب والمدح والذم . فالحرية شرط أساسى لكل الأفعال الخُلُقية ، وما يتعلق بها من مقاصد ونوايا ومواقف إرادية خُلُقية . ولا يمكن أن نتحدث عن أخلاقيات إلا إذا كان الإنسان يتمتع بالحرية التى تجعله قادراً على عمل الخير وترك الشر أو العكس . ولو لم نكن أحراراً فى الاختيار بين الخير والشر فلا يمكن أن نُحاسَب على تصرفاتنا ، كما لا يمكن أن نُمدح أو نُلام عليها .

وقد كانت مسألة حرية الإرادة ـ وما تزال ـ موضوع نقاش بين الفلاسفة بعضهم مع بعض من جهة وبينهم وبين رجال الدين من جهة أخرى ، ومن قديم الزمان يوجد فى هذا الصدد رأيان أساسيان : فهناك فريق يميل إلى القول بأن الإرادة حرة فى الاختيار ، وهناك فريق آخر يرى أن الإرادة مُجْبَرة وليست حرة فى الاختيار . وفى تاريخ الفكر الإسلامى نجد أنه قد برز من بين ما ظهر من اتجاهات فكرية فى هذا الصدد مذهبان يمثلان الاتجاهين المشار إليهما ، وذلك بالإضافة إلى اتجاه ثالث لا يقول بحرية الإرادة حرية مطلقة ولا بعجزها العجز المطلق .

وعلى كل حال فإن الحرية ـ والحرية الواعية ـ هى الأساس الذى ترتكز عليه الأخلاق ، ولو لم تكن هناك حرية لما أمكن أبداً تحديد المسئولية ، ولما كان هناك فعل يمكن أن نقول عنه إنه فعل خُلُقى ، وفعل آخر نصفه بأنه فعل غير خُلُقى .

ولا نريد هنا أن ندخل فى تفاصيل الخلاف العريض الذى ثار بين أصحاب الجَبْر وأصحاب الاختيار ، ولكننا نود أن نلفت النظر فحسب إلى أن الله سبحانه وتعالى قد خلق نوعين من المخلوقات ـ كما سبق أن أشرنا إلى ذلك فى فصل سابق ـ : أحدهما مسخَّر لا إرادة له ولا اختيار ، وليس أمامه إلا الطاعة والامتثال ، ويتمثل هذا النوع فى كل مخلوقات الله عدا الإنسان .

أما النوع الثانى وهو الإنسان فإنه مخلوق مكلّف ، والتكليف مسئولية . والمسئولية لا تقوم إلا على دعامة من الحرية فى الفعل أو الترك – كما يقول القرآن الكريم – :

﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ (١) .

ويترتب على ذلك قضية الثواب والعقاب التى يشير إليها القرآن الكريم فى قوله :

﴿ مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ (٢) .

صحيح أن الله يعلم كل ما سيقوم به كل فرد من خير أو شر، ومن إيمان أو كفر ، ولكن علم الله هنا ليس علم إكراه على الفعل أو الترك، وإنما هو علمٌ أزليٌّ بما سيقع من هذا الشخص أو ذاك . أما وقوع الفعل نفسه أو عدم وقوعه ، فهو فى أساسه من صميم حرية الشخص نفسه . وليس فى هذا ما يطعن فى القضاء والقدر من قريب أو بعيد ، فكل شىء قد قدَّره الله فى الأزل ، وهذا أمر لا جدال فيه . ولكنَّ خَلْقَ الإنسان بإرادة حرة ، هو أيضاً من بين ما قدَّره الله فى الأزل .

ثم إننا جميعاً فى حياتنا العملية نعترف بأثر التربية والتثقيف والتهذيب فى تغيير سلوك الإنسان ، كما أننا نضع قوانين ونعاقب المسىء ونكافئ المحسن ، فإذا كان الأمر هو أن الإنسان مُجْبَرٌ لا حرية له،

---

(١) سورة الكهف : ٢٩ .

(٢) سورة فصلت : ٤٦ .

ولا إرادة ، ولا اختيار ، فليس هناك ـ إذن ـ أىّ داعٍ للتربية والتهذيب أو الوعظ والإرشاد، أو وضع القوانين أو الثواب والعقاب، لأن ذلك كله يفترض أن هناك ذاتاً لها إرادة حرة ، وأنها قادرة على الاستجابة أو عدم الاستجابة .

والقول بالجَبْر فيه سَدٌّ لجميع منافذ الأمل فى حياة الإنسان ، وبدون الأمل لا يستطيع الإنسان أن يتقدم فى حياته أو يتطور فى معارفه ، بل إنه سيجمد ويتقوقع ، وبذلك تقف الحياة وتجمد البشرية.

وقد أعطانا الدين الأمل وغرس فى نفوسنا الثقة فى القدرة على التغيير إلى الأفضل ، مبيِّناً لنا أن هذا التغيير لن يسقط علينا من السماء، وإنما يتعلق أولاً بإرادتنا ذاتها التى تملك هذا التغيير . وهل هناك فى هذا الصدد أصدق من هذا القانون الإلهى الثابت ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (١).

فقد أسند الله سبحانه وتعالى التغيير للإنسان كما أسند إليه تزكية النفس أو إفسادها فى قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ (٢) .

* * *

(١) سورة الرعد : ١١ .

(٢) سورة الشمس : ٩، ١٠ .

(٩)
الحضارة وعمارة الأرض

لقد حدَّد الحق تبارك وتعالى مهمة الإنسان الحضارية فى هذا الكون بقوله :

﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ (١) .

وهذا يعنى أن الله قد كلَّف الإنسان بإعمار الأرض وصنع الحضارة فيها . ويعنى ذلك بدوره تمهيد الأرض وتحويلها إلى حال يجعلها صالحة للعيش فيها والانتفاع بخيراتها . والاستعمار فى الآية الكريمة هو طلب العمارة . ولا علاقة لهذا المصطلح بالمعنى السلبى الذى شهدناه فى عهود الاحتلال الأجنبى لعالمنا الإسلامى وغير الإسلامى ، والذى يرتبط فى الأذهان بمعانى التخريب والسلب والنهب والاستغلال الشنيع للأرض وللإنسان .

وحتى يستطيع الإنسان القيام بهذه المهمة الحضارية فى هذا الكون سلَّحه الله بالعلم الذى جعله الإسلام فريضة دينية . ولكن عمارة الأرض على هذا النحو ليست هى الحضارة بإطلاق ، وكذلك ليست

---

(١) سورة هود : ٦١ .

هى العمارة بإطلاق ، وإنما هى أحد جوانب العمارة . ويمكن أن يطلق عليها مصطلح « الحضارة الشيئية » أو المادية . أما الجانب الآخر الذى به تكتمل الحضارة – أو عمارة الأرض بالتعبير القرآنى – فإنه يشمل كل القيم الدينية والعقلية والأخلاقية والجمالية ، وبمعنى آخر : إن الحضارة الحقيقية هى التى تضع الإنسان فى قمة أهدافها .

ولا يبعد مفهوم الحضارة فى التصور الإسلامى عن ذلك كثيراً ، ولكنه يجعل الحضارة مرتبطة بتحقيق المشيئة الإلهية . ومن هنا يمكن القول بأن الحضارة فى المفهوم الإسلامى تعنى تحقيق المشيئة الإلهية فى عمارة الأرض ماديًا ومعنويًا . وبذلك يحقق الإنسان ذاته بوصفه خليفة الله فى الأرض .

وهكذا نجد أن سيطرة الإنسان على قوى الطبيعة لا تكفى وحدها لبناء الحضارة ، بل لابد أن ينضم إلى ذلك أيضاً سيطرة الإنسان على نوازعه الداخلية ، وأهوائه وشهواته حتى تكون منضبطة بالقيم الأخلاقية . وبذلك تتم عمارة الأرض كما أرادها الله . وبذلك أيضاً يكون الإنسان فى صلة مستمرة بالله خالق الكون ، تصحِّح له هذه الصلة دائماً مساره على الأرض حتى لا يضلَّ الطريق ، فيظن أنه سيِّد هذا الكون فيتجبر ويتكبر ويطغى ويعيث فى الأرض فساداً . فذلك كله ليس من التحضر فى شىء ، بل هو مناقض تماماً للحضارة وللإنسانية .

وبناءً على ما تقدَّم يمكن القول بأن الحضارة بالمعنى الصحيح تعنى التقدم المادى والروحى للإنسان . وبهذا لا تنفصل عن القيم الإنسانية بمعناها الشامل . كما أن مفهوم الحضارة مرتبط بمفهوم التقدم . وهذا يعنى أن الحضارة تُعَدُّ نقلة تقدمية بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى : تقدمية فى الفكر وفى السلوك وفى أسلوب التعامل مع الناس والأشياء . وهذا كله فى إطار منظومة من القيم التى تتعدى الإطار القَبَلى الضيِّق إلى الدائرة الإنسانية الأوسع والأرحب .

وقد كان للإسلام دور كبير فى تنبيه الأذهان إلى هذه الدائرة الإنسانية الواسعة مؤكِّداً على العنصر الإنسانى الشامل . وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ يا أيُّها النَّاسُ إنَّا خلقْناكُم مِّن ذكرٍ وأُنثىٰ وجعلْناكُمْ شُعُوبا وقَبَائِلَ لِتعارفُوا ﴾ (1) . وقد نبهت هذه الآية إلى عدة حقائق هى :

١ ـ النداء موجَّه لكل الناس .

٢ ـ وحدة الأصل الإنسانى .

٣ ـ وجود اختلافات غير جوهرية بين الأمم والشعوب .

٤ ـ نظراً لأن هذه الاختلافات لا تتعلق بجوهر الإنسان كإنسان فإنها تُعَدُّ منطلقاً للتعارف بين الناس بوصفهم ينتسبون جميعاً إلى أصل واحد مشترك .

---

(1) سورة الحجرات : ١٣ .

ketab.me

وهذا التعارف يُعَدُّ مفتاحاً للتفاهم والتعاون المشترك بين البشر فى سبيل ترسيخ قيم إنسانية مشتركة . ومن أجل ذلك جعل الإسلام الاعتداء على فرد واحد من أفراد البشرية بمثابة الاعتداء على البشرية كلها . وفى المقابل جعل تقديم الخير لفرد واحد بمثابة تقديم الخير للبشرية جمعاء . وهذا يعنى وضع الإنسان فى مكانه الصحيح ، ويعنى أيضاً أن الإسلام يُعَدُّ دينَ الإنسانية بكل ما تحمله هذه العبارة من معنى.

ومن ذلك يتضح أن هدف أىّ حضارة حقيقية هو الإنسان . فالإنسان هو صانع الحضارة وهو فى الوقت نفسه هدف الحضارة. وفى تأكيدنا على المعنى الإنسانى للحضارة لا نعدو قول الحق إذا قلنا : إن الحضارة تنتهى عندما تفقد فى مضمونها معنى الإنسان ، وحيث ينتهى المعنى الإنسانى تبدأ الأخلاق الزائفة والحضارة الزائفة.

وإذا كان الفيلسوف الإنجليزى المعروف « توماس هوبز » قد ذهب فى تصوُّره إلى حد رؤية الإنسان ذئباً بالنسبة لأخيه الإنسان ، وأن الكلَّ فى حرب ضد الكلِّ ، فإن التصور الإسلامى الذى يتلاءم مع الحضارة الحقيقية أو الذى يعبِّر عن لُبِّ هذه الحضارة ، والذى ينبغى أن يصل إلى وعى الأفراد والجماعات هو « مسئولية الكلِّ عن الكلِّ » . وهذا يمثل قمة التضامن والتعاون والتكافل بين البشر جميعاً.

* * *

(١٠)
الإنسان والمسئولية

المسئولية من الصفات المميزة للإنسان ، وهى صفة يستمدها من فطرته الإنسانية قبل أن يتلقاها من الخارج . وكل إنسان لديه إحساس بالمسئولية بشكل أو بآخر . وكلما كانت الفطرة سليمة ازداد لدى الإنسان الشعور بالمسئولية .

وافتراض الشعور بالمسئولية قائم لدى كل إنسان إذ إننا كبشر لن نستطيع أن نتحلل منه تماماً فى حياتنا الواعية . ولكن هذا لا يمنع من أن تكون حيوية هذا الشعور مختلفة من فرد إلى آخر . وهناك ارتباط تام بين الشعور بالمسئولية والضمير . وعندما نتحدث عن الضمير فإننا نعنى ذلك الشعور الكامن فى أعماقنا والذى له تأثيره الكبير فى توجيه سلوكنا الوجهة الصحيحة . ومن هنا كان التوجيه النبوى : «اسْتَفْتِ قَلْبَكَ» .

وتتأسس المسئولية على قاعدة من الحرية الواعية . وهذا يعنى أن كل فعل يصدر من المرء دون حرية واعية لا تترتب عليه أىّ مسئولية خُلُقية أو دينية . والمسئولية تلازم صاحبها قبل صدور الفعل وأثناءه وبعده ، وتعنى أن صاحبها له شخصيته المستقلة فى الفعل أو الترك ، فى القبول

أو الرفض ، وله قدرته على تنفيذ ما استقرت عليه إرادته . وبهذا المعنى تُعَدُّ المسئولية صفة تشريف للإنسان لأنها مرادفة لمعانى الحرية والاستقلال والكرامة والقوة .

والمسئولية فى التصور الإسلامى فردية ، فلا يتحمل أحد وزر آخر: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ (١) . وهناك دوائر مختلفة للمسئولية وردت فى الحديث الشريف القائل :

« كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ . فَالإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ فى أَهْلِهِ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالمَرْأَةُ فى بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا ، وَالخَادِمُ رَاعٍ فى مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ » (٢) .

وبالإضافة إلى هذه المسئوليات الخارجية ، التى تحددها ظروف كل فرد فى الحياة ومركزه فى المجتمع الذى يعيش فيه ، توجد هناك مسئولية خاصة وشخصية تُعَدُّ بمثابة المركز لكل دائرة من دوائر المسئولية الأخرى . ويمكن القول بأن المسئولية تُفهم بمعنيين : أولهما: مسئولية الإنسان عن نفسه ، فهو مسئول عن عقله وعلمه وجسمه وماله وأوقاته ، وعن حياته بصفة عامة . وفى هذا المعنى يقول النبى ﷺ:

---

(١) سورة المدثر : ٣٨ .

(٢) رواه البخارى فى صحيحه - كتاب : الجمعة - باب : الجمعة فى القرى والمدن .

« لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمْرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ ، وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا فَعَلَ بِهِ ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ » (١) .

أما المعنى الثانى فهو مسئولية الإنسان نحو الآخرين ونحو العالم الذى يعيش فيه . فمن المعلوم أن الإنسان بطبيعته كائن اجتماعى ، وهو فى حاجة إلى المجتمع الإنسانى لتطوير شخصيته . ومن ناحية أخرى فإن عليه التزامات أدبية تجاه هذا المجتمع الإنسانى . وهذه الالتزامات مرتبطة أشد الارتباط بوجوده الإنسانى .

وكل إنسان سليم العقل يشعر بأنه لو لم يتحمل مسئوليته تجاه الآخرين فإنه لا يجوز له أن ينتظر من الآخرين أن يتحملوا بالنسبة له أىّ مسئولية . فلو لم أعدل فى حق الآخرين فإنه لا يجوز لى أن أنتظر منهم أن يعدلوا فى حقى .

وهناك أناس يبرِّرون ما يصدر عنهم من أفعال خاطئة بأنها أمور مقدَّرة فى الأزل ، وبالتالى فإنه لم يكن فى استطاعتهم إلا أن يفعلوا ما كتبه الله عليهم . ومن الأمثلة على ذلك ما يُروى أنه قد أُتى لعمر بن الخطاب - رضى الله عنه - بسارق . فسأله عمر : لماذا سرقت ؟ فرد قائلاً : هذا قضاءٌ كتبه الله علىّ لا أستطيع له ردًّا . فأمر عمر بقطع يده وجلده ثلاثين جلدة . فراجع الصحابة عمر قائلين : لقد تزيَّدتَ فى

(١) رواه الترمذى فى كتاب : صفة القيامة ، وقال : هذا حديث حسن صحيح .

الحَدَّ ، وما كان لك أن تأمر بجلده بعد أن أقمت عليه حدَّ السرقة . ولكن عمر رد عليهم بقوله: لقد أمرت بجلده لأنه كذب على الله ، إذ كيف له أن يعلم أن الله قد كتب عليه أن يسرق ؟.

وهكذا لا يجوز لأحد أن يتعلل بالقضاء والقدر لتبرير ما يصدر عنه من جرائم . فالمسئولية قائمة . وما كتبه الله على الإنسان فى الأزل ما هو إلا تسجيل لما سيصدر عن كل فرد منا بإرادته الحرة ، وباختياره الذى لا إكراه فيه . ومن هنا يتحمل الإنسان المسئولية كاملة عن كل فعل يصدر منه صغر هذا الفعل أم كبر :

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾(١) .

* * *

(١) سورة الزلزلة : ٧ ، ٨ .

(١١)
الإنسان والدين

الدين يُعَدُّ أحد المكونات الرئيسية لكل الحضارات التى صنعها الإنسان على مدى تاريخ البشرية ، والإيمان يُعَدُّ فطرة أصلية فى أعماق الإنسان ، وهذا يعنى أن الإنسان متديِّن بطبعه : ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ (١) . ومن هنا فإن من عرَّف الإنسان بأنه كائن متديِّن لم يكن مجانباً للصواب .

إن هناك ـ إذن ـ جوانب أساسية فى طبيعة الإنسان لا يجوز إهمالها أو تجاهلها . ومن هذه الجوانب الجانب الروحى فى مقابل الجانب المادى . ويشمل الجانب الروحى كل القوى المعنوية فى الإنسان من عقل وروح وقلب ... إلخ . ويعبِّر حُجَّة الإسلام أبو حامد الغزالى عن الجانب الروحى بقوله : إنه « الحس السادس الذى يُعبَّر عنه بالعقل أو بالنور أو بالقلب أو ماشئت من العبارات » (٢) . ويمكن تقسيم هذا الجانب الروحى إلى قسمين : أحدهما يتصل بالعقل ومجاله ، وثانيهما يتصل بعالم الروح والوجدان .

---

(١) سورة الروم : ٣٠ .

(٢) إحياء علوم الدين للغزالى ـ ج ٤ ص ٢٨٩ ـ طبع مصطفى البابى الحلبى ١٩٢٩م .

وإذا أردنا أن نفهم الإنسان فهماً سليماً فإنه لا يجوز إغفال أى جانب فى طبيعة الإنسان سواء كان ماديًا أو روحيًا ، لأن هذا الفهم المتكامل له آثاره البعيدة فى تربية الإنسان وتقويمه وجعله صاحب شخصية سوية متوازنة . وهذا التوازن من شأنه أن يؤدى إلى إقامة مصالح الدين والدنيا معاً . فعالم الماديات ـ رغم أهميته ـ ليس هو كل شىء . فهناك فوق ذلك عالم الروح المتصل بالله الذى نفخ فى الإنسان من روحه .

والعقل فى تأملاته وعلومه وفنونه وسائر أعماله مدفوع بفطرته إلى التطلع إلى ما فوق عالم المادة . ومن هنا فإن الوقوف بالإنسان عند عالم المادة يُعَدُّ قصوراً فى فهم طبيعة الإنسان وتكوينه . وهذا الفهم القاصر والخاطئ قد يؤدى بالإنسان إلى إنكار عالم الروح كلية، أو على الأقل يؤدى إلى إهماله وعدم الاكتراث به . وهنا يظهر الإلحاد فى شتى صوره وأشكاله .

إن العقل الواعى الفاهم المدرك لا يقف عند الأسباب الثانوية المبعثرة التى تصادفه فى عالم الطبيعة ، وإنما يتابع السير إلى ما وراءها . وعندما يُنعم النظر فى سلسلة الأسباب كيف تتصل حلقاتها فإنه لا يجد بدًّا من اللجوء إلى أحضان العناية الإلهية والتسليم بوجود الله الذى بيده مقاليد كل شىء . وهذا يوضح لنا - كما يعبِّر عن ذلك أحد العلماء الغربيين - أن « النظرة الروحية أو الدينية لا تولد فى النفس إلا حينما يتسع أفقها . فتتجاوز الكون بظاهره وباطنه إلى ما وراءه . فهى أوسع

النظرات مجالاً وأبعدها مطلباً » (١) .

ولكن هذه النظرة الروحية أو الدينية المشار إليها تنبنى على ما هو مركوز بالفعل فى فطرة الإنسان من نزعة دينية أصيلة . وقد عبَّر القرآن عن هذه النزعة الأصيلة فى آية الميثاق بقوله :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ (٢) .

وقد سُئل أعرابىٌ بسيط كيف عرفت الله ؟ فقال : « البعرة تدل على البعير ، وأثر السير يدل على المسير . وهذه سماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج . أفلا تدل على اللطيف الخبير ؟ » .

ومن الواضح أن هذا الأعرابى قد اعتمد على قانون السببية . وهو من القوانين البديهية الفطرية التى يستطيع كل منا أن يدركها فى حياته اليومية دون مشقة أو عناء . إن كل شىء فى هذا الوجود يشير إلى خالق الوجود . وقد عبَّر عن ذلك الشاعر العربى القديم بقوله :

وفِي كُلِّ شَـيْءٍ لَـهُ آيَـةٌ تَـدُلُّ عَلَـى أَنَّـهُ الوَاحِـدُ

والمتأمل فى آيات الله فى الكون وفى الإنسان سيتبين له يقيناً أن الله

---

(١) راجع : الدين - للدكتور محمد عبد الله دراز ص ٨٦ - دار القلم بالكويت ١٩٨٠م .
(٢) سورة الأعراف : ١٧٢ .

هو الحق . وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك فى قوله : ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (١) .

وإذا كان الإيمان يُعَدُّ أمراً فطريًّا ونزعة أصيلة فى نفس الإنسان ، فإنه من ناحية أخرى يُعَدُّ ضرورة حياتية لا تستقيم حياة الإنسان بدونها . ومن هنا نرى فى عالمنا المعاصر مقدار ما يعانيه الإنسان فى العصر الحديث من تمزق نفسى بسبب الفراغ الروحى ، الأمر الذى يجعله كالمعلَّق بين السماء والأرض ، ليس لديه أساس راسخ يركن إليه ، ولا إيمان يملأ جوانب نفسه بالسكينة والطمأنينة .

وهذا يؤكد لنا ارتباط الإيمان بالأمل ارتباطاً وثيقاً لا ينفصم . فالمؤمن لا يمكن أن ييأس أو يتسرب القلق إلى نفسه أو الشك إلى قلبه . ويعبِّر القرآن الكريم عن ذلك بقوله :

﴿ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (٢) .

* * *

(١) سورة فصلت : ٥٣ .

(٢) سورة يوسف : ٨٧ .

(١٢)
(النساء شقائق الرجال)

عندما جاء الإسلام كانت الأوضاع التى تعيش المرأة فى ظلها أوضاعاً سيئة . فلم يكن لها حقوق تُحترم ، أو رأى يُسمع . فانتشلها الإسلام من هذه الأوضاع السيئة ، وأعلى مكانتها ، ورفع عنها الكثير من الظلم الذى كانت تتعرض له ، وجعلها تشعر بكيانها كإنسان مثل الرجال سواءً بسواء ، وضمن لها حقوقها المشروعة ، وأسقط عنها تهمة إغواء آدم فى الجنة بوصفها أصل الشر فى العالم . وبيَّن أن الشيطان هو الذى أغوى آدم وحواء معاً كما يقول القرآن الكريم :

﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ (١) .

ويقرر الإسلام أن الناس جميعاً - رجالاً ونساء - قد خُلقوا من نفس واحدة ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾(٢) . فالرجل والمرأة متساويان تماماً فى الاعتبار الإنسانى ، وليس لأى منهما ميزة على الآخر فى هذا الصدد . والكرامة التى منحها

---

(١) سورة البقرة : ٣٦ .

(٢) سورة النساء : ١ .

الله للإنسان فى قوله : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ ﴾ (١) هى كرامة للرجل والمرأة على السواء .

وعندما يتحدث القرآن الكريم عن الإنسان أو عن بنى آدم فإنه يقصد الرجل والمرأة معاً . أما إذا أراد أن يتحدث عن أى منهما وحده فإنه يستخدم مصطلح « الرجال » ومصطلح « النساء » .

وقد وصف النبى عليه الصلاة والسلام العلاقة بين الرجل والمرأة بقوله :

« النِّسَاءُ شَقَائِقُ الرِّجَالِ لَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالمَعْرُوفِ » (٢) .

والوصف بكلمة شقائق يوضِّح لنا المساواة والنديَّة ، والرجال والنساء أمام الله سواء لا فرق بينهما إلا فى العمل الصالح الذى يقدمه كل منهما - كما يشير إلى ذلك القرآن الكريم - :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٣) .

والله يستجيب لدعاء المرأة كما يستجيب لدعاء الرجل ، ولا يضيع العمل الصالح لأىٍّ منهما - كما يقول القرآن الكريم - :

---

(١) سورة الإسراء : ٧٠ .

(٢) رواه الترمذى فى سننه - كتاب : الطهارة ، وأبو داود فى سننه - كتاب : الطهارة .

(٣) سورة النحل : ٩٧ .

obeikandi.com

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ ﴾ (١) .

والتعبير القرآنى بقوله : « بعضكم من بعض » يدل على أن كلاً منهما مكمِّل للآخر وأن الحياة لا يمكن أن تسير فى الاتجاه الصحيح دون مشاركتهما معاً .

وقد أعطى الإسلام للمرأة استقلالها التام عن الرجل فى الأمور المالية . فلها مطلق الحرية فى التصرف فيما تملك بالبيع والشراء والهبة والاستثمار .... إلخ . دون إذن من الرجل مادامت لها أهلية التصرف . وليس لزوجها ولا لغيره من أقاربها من الرجال أن يأخذ من مالها شيئاً إلا بإذنها .

ولا يجوز للرجل - حتى ولو كان الأب - أن يُجبر ابنته على الزواج من رجل لا تحبه . فالزواج لابد أن يكون بموافقتها وبرضاها . وقد جاءت فتاة إلى النبى ﷺ تشكو من أن أباها زوَّجها من ابن أخ له ليرفع بذلك من مكانته وهى له كارهة . فاستدعى النبى الأب ، وجعل للفتاة حرية الاختيار : إما رفض هذا الزواج أو قبوله . فقررت بمحض إرادتها قبول هذا الزواج وقالت : « يا رسولَ الله قد أجزتُ ما صنعَ أبى ، ولكنِّى أردتُ أنْ أُعلم النساء أنه ليس للآباء من هذا الأمر شىءٌ » (٢) ، أى : ليس للآباء سلطة إكراه بناتهم على الزواج .

---

(١) سورة آل عمران : ١٩٥ .

(٢) رواه النسائى فى سننه - كتاب : النكاح .

والمرأة شريكة الرجل فى الأسرة وفى تربية الأطفال . ولا يُعقل أن تستقيم حياة الأسرة دون مشاركة إيجابية من الطرفين، وإلا اختلَّت موازين الأسرة وانعكس أثر ذلك سلباً على الأطفال . وقد حمَّل النبى ﷺ كلاًّ من الرجل والمرأة هذه المسئولية المشتركة عندما قال :

« كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ . فَالإِمَامُ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فى أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فى بَيْتِ زَوْجِهَا وَهِىَ مَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا »(١) .

وإسناد المسئولية هنا للمرأة ينفى تماماً تهمة تبعية المرأة الدائمة للرجل ، فليست هناك مسئولية دون حرية ، والحرية لا تتفق مع التبعية.

ولا يجوز للرجل أن يمنع المرأة من حقوقها المشروعة فى الحياة، ولا يجوز له أن يمنعها من التردد على المسجد للعبادة .

وقد ورد عن النبى ﷺ فى ذلك قوله :

« لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللهِ أَنْ يُصَلِّيْنَ فِى الْمَسْجِدِ »(٢) .

وإذا كان بعض المسلمين - استناداً إلى تقاليد بالية وأعراف باطلة - لا يلتزم بهذه المواقف الإسلامية نحو المرأة فإن ذلك يُعَدُّ جهلاً بالإسلام وأحكامه أو سوء فهم لتعاليمه الواضحة .

---

(١) سبق تخريج الحديث . انظر ص ٥١ .

(٢) رواه الإمام مسلم ، وأبو داود .

(١٣)
(وما خلقتُ الجنَّ والإنسَ إلا ليعبدون)

لقد حدَّدت الآية الكريمة - التى جعلناها عنواناً لهذا الحديث - الهدف من خَلْق الإنسان بأنه العبادة لله وحده . وقد دعت الأديان السماوية كلها البشر على مدى التاريخ لعبادة الله وحده لا شريك له . وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ (١) .

وقد درج الناس على فهم العبادة بأنها أداء الشعائر الدينية من صلاة وصيام وزكاة وحج ..... إلخ . ولكن الفهم المتكامل للقرآن الكريم يبيِّن لنا أن هذا فهم جزئى للعبادة ، ولا يعبِّر بحال من الأحوال عن المقصود بالعبادة فى الآية المذكورة .

وقد سبق أن أشرنا فى حديث سابق إلى أن الله قد كلَّف الإنسان بمهمة إعمار الأرض وصنع الحضارة فيها . ولا شك أن هذه المهمة تدخل فى إطار العبادة لأنها تندرج فى دائرة الطاعة لله وتنفيذ أوامره .

---

(١) سورة النحل : ٣٦ .

كما أن الإسلام قد جعل من العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، وهذا يدخل أيضاً فى دائرة العبادة . لأن عمارة الأرض لا تتحقق بدون العلم ، بل إن مجال العبادة يتسع ليشمل مجالس العلم فى المؤسسات التعليمية المختلفة . ويندرج تحت مفهوم العبادة أيضاً كل الأعمال التى يقوم بها الناس فى مختلف الحرف والمهن مادام هدفها هو تقديم الخير للناس والإسهام فى تقدُّم الحياة وازدهارها ، والإخلاص فى ذلك كله لله سبحانه وتعالى .

وباختصار نستطيع أن نقول إن العبادة يمكن فهمها بمعنيين : معنى واسع ويشمل ذلك الالتزام بكل ما أمر الله به واجتناب كل ما نهى الله عنه . ويدخل فى ذلك كل ما يتعلق بصلة الإنسان بنفسه وبالله وبما يشتمل عليه هذا العالم من بشر وكائنات حية وغير حية . وهذا المعنى الواسع لمفهوم العبادة هو المقصود فى الآية الكريمة على النحو الذى أوضحناه .

أما المعنى الضيِّق للعبادة فإنه ينحصر فى أداء الشعائر الدينية المفروضة . ولكن هذا المعنى الضيِّق من جانب آخر يُعَدُّ فى خدمة المعنى الواسع للعبادة ، ويشتمل على الآليَّة - إنْ صحَّ التعبير - التى تساعد على الوصول إلى الهدف الحقيقى من خَلْق الإنسان وهو العبادة لله وحده .

وهذا يعنى أن الشعائر الدينية اليومية أو الموسمية ليست هدفاً فى ذاتها ، وإنما هى - بالأحرى - وسيلة لغيرها مما يُقرِّب الإنسان من الله، وحتى لا نظل فى دائرة التجريد والعموميات علينا أن نرجع إلى القرآن الكريم فى هذا الصدد ليتضح لنا من آياته الكريمة مدى صحة هذا الفهم المشار إليه .

فالصلاة المفروضة علينا خمس مرات فى اليوم والليلة ، يقول القرآن عنها : ﴿ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾ (١) . أى أنها وسيلة لجعل الإنسان ينتهى عما نهى الله عنه وبالتالى يلتزم بأوامره . كما أن الزكاة يصفها القرآن الكريم بأنها تطهير وتزكية للإنسان : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ (٢) .

والصوم كتبه الله على المؤمنين على أمل أن يتعمَّق لديهم معنى التقوى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٣) .

والتقوى تُعَدُّ طريق القرب من الله تعالى ووقاية من ارتكاب الذنوب والآثام . والحج أيضاً فيه منافع للناس دينية ودنيوية :

---

(١) سورة العنكبوت : ٤٥ .

(٢) سورة التوبة : ١٠٣ .

(٣) سورة البقرة : ١٨٣ .

﴿ وأذّن في النّاس بالْحجّ يأتُوك رجالاً وعلَىٰ كُلِّ ضامرٍ يأتين من كُلِّ فجٍّ عميقٍ (٢٧) ليشْهدُوا منافع لهُمْ ﴾ (١).

ومن خلال هذه الإشارات الموجزة يتبين لنا أن العبادة المقصودة فى قوله تعالى : ﴿ وما خلقْتُ الْجنّ والإنس إلاّ ليعْبُدُون ﴾ (٢) بعيدة كل البعد عن المعنى الضيّق الذى يريد البعض أن يحصرها فيه.

إن الإسلام لا يريد من أتباعه أن يقبعوا فى المساجد بدعوى الانقطاع للعبادة ويتركوا الآخرين يعولونهم . فهذا من قبيل التواكل المذموم المنهيّ عنه فى الإسلام . وقد رُوى أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - رأى بعد الصلاة قوما قابعين فى المسجد بدعوى التوكل على الله . فَعَلَاهُمْ بدِرَّته وقال كلمته الشهيرة : « لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول : اللهمَّ ارزقنى ، وقَدْ عَلِمَ أن السماء لا تُمطر ذَهَبا ولا فِضَّة ، وأن الله تعالى يقول : ﴿ فإذا قُضيت الصّلاةُ فانتشرُوا فى الأرض وابتغُوا من فضْل الله ﴾ (٣) » .

وقد رُوى أن النبى - عليه الصلاة والسلام - رأى رجلاً يتحامل على الناس فسأل عنه فقيل:هذا عابدنا . فقال ﷺ : ومن يُؤكِّله ؟ قالوا: كلنا يُؤكِّله . فقال عليه الصلاة والسلام : كُلُّكُمْ خيرٌ منهُ .

وهذا يوضح لنا - بجلاء - مدى خطأ الفهم الضيّق للعبادة .

---

(١) سورة الحج : ٢٧ ، ٢٨ .

(٢) سورة الذاريات : ٥٦ .

(٣) سورة الجمعة : ١٠ .

(١٤)
الإنسان كائن مفكر

يُعَدُّ العقل الإنسانى أجلَّ نعمة أنعم الله بها على الإنسان ، ووظيفة العقل الإنسانى هى التفكير . وقد اهتم الإسلام اهتماماً كبيراً بالتفكير الذى من خلاله يستطيع الإنسان أن يميِّز بين الأمور ويحكم على الأشياء والأشخاص ، ويبتكر ويبدع فى جميع المجالات . وقد ورد الحث على التفكير فى العديد من آيات القرآن الكريم ، ومن ذلك قوله تعالى : (لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرون) ، وقوله : (أَفَلَا تَتَفَكَّرون) . وأكثر التعبيرات التى وردت فى هذا الصدد قوله تعالى : (إِنَّ فى ذلكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرون) .

ومن خلال النظر فى الأساليب القرآنية الواردة فى هذا الشأن نجد أن القرآن الكريم يحفز الناس على التفكير ويأمرهم به فى سياقات متنوعة . وعادة يأتى ذلك عقب ذكر العديد من آيات الله الكونية أو الإنسانية ، أو الحديث عما يتضمنه القرآن الكريم من حِكَم بالغة ، أو بعد الإشارة إلى بعض الأمثال أو القصص ، أو حتى بعد التنبيه إلى ما بين الزوجين من المودَّة والرحمة ، أو غير ذلك من أمور تتطلب من

الإنسان أن يشحذ ذهنه وعقله لفهمها وإدراك ما تنطوى عليه من سنن وأسرار إلهية .

وقد كان الأستاذ عباس العقاد مُحِقًّا تماماً عندما أطلق على أحد مؤلفاته عنوان (التفكير فريضة إسلامية) . فقد استخدم القرآن الكريم لذلك صيغاً عديدة بجانب مشتقات الفكر ، مثل الفقه ومشتقاته ، والنظر والبصر غير الحسِّيين ومشتقاتهما ، وغير ذلك من ألفاظ أخرى عديدة مرادفة للفكر . وهذا ما جعل الفيلسوف العظيم ابن رشد يَعتبر النظر العقلى فى الموجودات واجباً شرعيًّا .

ولم يقتصر الإسلام على حث الناس على ممارسة التفكير فى الأمور الدنيوية البحتة ، بل فتح الباب واسعاً لممارسة التفكير أيضاً فى الأمور الدينية من أجل البحث عن حلول شرعية لكل ما يستجد من مسائل الحياة . وهذا هو ما يسميه الإسلام بالاجتهاد ، بمعنى الاعتماد على الفكر فى استنباط الأحكام الشرعية .

ويُعَدُّ الاجتهاد - بهذا المعنى - مبدأ الحركة فى الإسلام كما يقول المفكر الإسلامى المعروف محمد إقبال [1] . وقد تقررت فى ذلك قاعدة إسلامية تقول : « **إن المجتهدَ إذا اجتهدَ فأخطأ فله أجرٌ واحدٌ وإذا اجتهدَ فأصابَ فله أجران** » [2] .

---

(١) انظر : تجديد التفكير الدينى فى الإسلام للدكتور محمد إقبال - ترجمة عباس محمود ص١٤٤ ، ١٦٨ - ١٧٠ . القاهرة ١٩٦٨م .

(٢) رواه البخارى فى صحيحه - كتاب: الاعتصام، باب: أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ .

وقد كان لمبدأ الاجتهاد أثره العظيم فى إثراء الدراسات الفقهية لدى المسلمين وإيجاد الحلول السريعة للمسائل التى لم يكن لها نظير فى العهد الأول للإسلام . وقد نشأت عنه مذاهب الفقه الإسلامى المشهورة التى لا يزال العالم الإسلامى يسير على تعاليمها حتى اليوم . وأدى الاجتهاد إلى ظهور علم فلسفى جديد هو « علم أصول الفقه » الذى يُعَدُّ بمثابة فلسفة للتشريع الإسلامى (١) .

وهكذا كان اعتماد المسلم على عقله وتفكيره فيما يُشْكل عليه من أمور الدين والدنيا مما لم يرد فى شأنه نصوص شرعية هو الدعامة الأولى فى الموقف العقلى الراسخ للإسلام . فقد كان هذا الموقف بمثابة الأساس الذى بنى عليه المسلمون حضارتهم الزاهرة على امتداد تاريخ الإسلام خلال القرون التى شهدت قوة المسلمين وقدرتهم على الإبداع.

وعندما توقَّف المسلمون عن التفكير وانتشرت بينهم بعض المقولات الخاطئة مثل : « لم يترك الأول للآخر شيئاً » ، « وليس فى الإمكان أبدع مما كان » توقَّفت حضارتهم وتوقَّف إبداعهم ، واكتفوا بترديد ما قاله السابقون . وقد أدى ذلك بطبيعة الحال إلى توقُّف عطائهم الحضارى وإخلاء المجال لغيرهم من الأمم الأخرى لتحمل راية التقدم .

(١) من المعروف أن أول من ابتكر علم أصول الفقه كان الإمام الشافعى فى كتابه « الرسالة » .

ومن هنا فإن تقدُّم الآخرين وتخلُّف المسلمين الحضارى فى القرون الأخيرة يرجع إلى أن الآخرين قد مارسوا التفكير واستخدموا عقولهم جيداً بينما توقَّف المسلمون . والقرآن الكريم يقول فى هذا الصدد :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وما فى الأرْضِ جميعا مِّنْهُ إنَّ فى ذَلك لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يتفكَّرُونَ ﴾ (١) .

فهذا التسخير للسموات والأرض وما بينهما يُعَدُّ حقلاً واسعاً ومجالاً لا حدود له لكل من يستخدم عقله وفكره : ﴿ إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ . فكل من يفكر سيصل لا محالة . أما الذين لا يفكرون فلن يصلوا إلى شىء . وهذا هو ما حدث بالفعل . فقد وصل الآخرون إلى ما وصلوا إليه من ثورات صناعية واتصالية ومعلوماتية وتكنولوجية ، وقنع المسلمون بموقف المتفرج والمستهلك لما ينتجه الآخرون .

وقد آن الأوان ليتغير وضع المسلمين ، وأن يعودوا إلى طريق العقل، وطريق العلم والتفكير والإبداع ، ليستعيدوا مسيرة الأسلاف العظام فى العطاء العلمى والحضارى المتجدد بلا حدود .

* * *

(١) سورة الجاثية : ١٣ .

(١٥)
العلاقات الإنسانية

لقد قيل قديماً: « الإنسان مدنيٌّ بالطبع » ، ويقصد بذلك ما يعنيه التعبير الحديث : « الإنسان كائن اجتماعى » أى أنه لا يستطيع أن يعيش إلا فى مجتمع . إنه - بفطرته - ينزع إلى أن يعيش مع الآخرين فى علاقات إنسانية ، يتبادلون المنافع والخبرات الحياتية ، ويتعاونون فيما بينهم على كل ما يعود عليهم بالخير . وبذلك تقوم المجتمعات وتسير فى طريقها نحو التقدم والارتقاء فى كل جانب من جوانب الحياة . ومن شأن ذلك أن يُثرى الحياة الإنسانية ويجعل لها معنى .

وصلات الإنسان بغيره لها أبعاد عديدة وتستند إلى أسس عقلية وعملية وأخلاقية . ويمكن تلخيص أهم الأسس التى تقوم عليها العلاقات الإنسانية فى التصور الإسلامى فى عدة عناصر تتمثل فى وحدة الأصل الإنسانى ، وشمول الكرامة الإنسانية لكل البشر ، والمساواة التامة بين الناس ، واحترام الآخرين ، والتراحم ، والتزام العدل فى التعامل مع الآخرين ، والتعاون على البِرِّ والتقوى ، وذلك كله فى إطار من محبة الآخرين ومحبة الخير لهم فى ضوء الحديث الشريف:

« لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ »[1] .

وإدراك هذه المعانى النبيلة التى تحكم العلاقات الإنسانية فى التصور الإسلامى لن تتحقق بصورة صحيحة إلا إذا تمت المصالحة بين الإنسان ونفسه من ناحية ، وبينه وبين الله من ناحية ثانية . فإذا تمت هذه المصالحة انعكس ذلك بصورة إيجابية على علاقاته بالآخرين من أناس وحيوانات وأشياء . وبمعنى آخر : إذا كان الضمير متيقظاً والإيمان عميقاً فإن ثمرة ذلك تكون حسن الصلة بالآخرين ؛ لأن الإسلام يطلب من المسلم أن يتوافق مع عالمه الذى يعيش فيه .

والمجتمع السوى مجتمع يعيش أفراده فى توافق وانسجام . وهذا أمر يمكن تحقيقه عن طريق تربية الضمير والتوعية الصحيحة بقيم الدين والأخلاق . وبتضافر الوازع الداخلى مع الوازع الدينى يكون بناء الشخصية السوية للفرد بناءً متماسكاً يجعل المجتمع كالبنيان المرصوص يشدُّ بعضه بعضاً .

ومن ذلك يتضح لنا أن النظام الأخلاقى فى الإسلام - والذى ينبغى أن يحكم علاقات الناس بعضهم ببعض - يعتمد على أمرين جوهريين هما : الباعث الداخلى أو الضمير ، والوازع الدينى المتمثل فى الإيمان . وهما يتعاونان معاً فى سبيل هداية الإنسان وإرشاده إلى طريق الخير والرشاد . ويمثل كلاهما مصدر الإلزام الخُلُقى فى الإسلام .

---

(١) رواه كل من البخارى ومسلم والترمذى وأحمد والبيهقى عن أنس بن مالك .

ومن هنا نفهم لماذا جعل النبى ﷺ الحياء عنصراً من عناصر الإيمان[1] فهما - الحياء والإيمان - أمران متلازمان فى عقيدة الإسلام. وإذا افتقد المرء الحياء، بمعنى: إذا غفل الضمير فإن ذلك يعنى اختفاء الحاكم أو الرقيب الداخلى لدى الإنسان. وهذا معناه الانفلات من إطار النظام الأخلاقى. وقد عبَّر النبى ﷺ عن هذا الانفلات بقوله: «إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ».

وقد حرص الإسلام على تنقية العلاقات الإنسانية من كل الشوائب، فنهى عن سخرية فرد أو جماعة من الآخرين، كما نهى عن جرح شعور الآخرين بأى شكل من الأشكال. وفى أبلغ صورة يعلمنا الرسول احترام شعور الآخرين حين يقول:

«إِذَا كُنْتُمْ ثَلَاثَةً فَلَا يَتَنَاجَى رَجُلَانِ دُونَ الآخَرِ حَتَّى تَخْتَلِطُوا بِالنَّاسِ فَإِنَّ ذَلِكَ يُحْزِنُهُ»[2].

إن المجتمع الإنسانى مجتمع متشابك فى علاقاته، ويمثل وحدة واحدة تجمع البشر جميعاً فى إطار واحد، وهذا يعنى أن مصير البشرية كلها مصير واحد مشترك. وقد شبَّهه النبى ﷺ بمصير قوم اجتمعوا فى

---

(١) وذلك فى الحديث الشريف: «الإيمان بضعٌ وسبعون شُعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شُعبة من الإيمان» - رواه كل من مسلم وأبى داود والنسائى وابن ماجه. (انظر: فيض القدير ج ٣ ص ١٨٥ - دار المعرفة - بيروت).

(٢) رواه البخارى ومسلم والإمام أحمد فى مسنده والترمذى وابن ماجه عن ابن مسعود (فيض القدير ج ١ ص ٤٣٥).

سفينة واحدة ، وقد استقر بعضهم فى أعلاها وبعضهم فى أسفلها . وكان الذين فى أسفل السفينة يأخذون حاجتهم من الماء بالصعود إلى أعلى السفينة . وقد فكروا فى إراحة أنفسهم من الصعود والهبوط وقرروا إحداث خرق فى أسفل السفينة يأخذون منه حاجتهم من الماء . ويحذِّر النبى من مغبّة ذلك مشيراً إلى أنه إذا ترك الناس هؤلاء القوم يفعلون ما يريدون غرقوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم ومنعوهم مما أرادوا نجا الجميع من غرق محقَّق .

وهذا يعنى أن إنقاذ البشرية من الهلاك يتحقق عن طريق التضامن بين البشر ، والتعاون فى سبيل دفع الأخطار وجلب المنافع ، من أجل خير الجميع وأمنهم واستقرارهم .

***

(١٦)
حقوق الإنسان

إذا نظرنا بصفة عامة إلى قضية حقوق الإنسان فى التاريخ الإنسانى والأساس الذى ترتكز عليه هذه الحقوق فى التصورات العامة نجد أنها تدور بين أن تكون مبنية على أساس الحق الطبيعى ، أو التعاليم الدينية أو الأخلاقية ، أو على أساس وضعى .

وقد تطور مفهوم حقوق الإنسان فى الفكر الإنسانى على مدى قرون عديدة من خلال صراع طويل داخل الجماعات الإنسانية ، وانتهى الأمر إلى التصور الحديث لهذا المفهوم ، والذى يرتكز بصفة خاصة على الأسس والمبادئ التى نادى بها التنوير الأوربى .

وفى خضمّ المناقشات التى تدور حول حقوق الإنسان حتى يومنا هذا ترتفع بين حين وآخر بعض الأصوات التى تتهم الإسلام بأنه دين لا يعرف حقوقاً للإنسان . ويتم - بقصد أو بغير قصد - تجاهل عطاء الإسلام فى قضية حقوق الإنسان تجاهلاً تاماً . ووضعاً للأمور فى نصابها وتصحيحاً للتصورات الخاطئة فى هذا الصدد نتناول هذه القضية فيما يلى من حيث الأسس التى تنبنى عليها فى التصور الإسلامى .

إن من المعروف لكل دارس للشريعة الإسلامية أن مقاصدها - منذ كانت - تتمثل فى قيام مصالح الناس فى الدين والدنيا معاً ، وقد رُوعى فى كل حكم من أحكامها إما حفظ شىء من الضروريات الخمس وهى: (الدِّين ، والنفس ، والعقل ، والنسل ، والمال) ، والتى تُعَدُّ أسس العمران المرعية فى كل مِلَّة ، وإما حفظ شىء من الحاجيات كأنواع المعاملات ، وإما حفظ شىء من التحسينات التى ترجع إلى مكارم الأخلاق ، وإما تكميل نوع من هذه الأنواع بما يعين على تحقُّقه(١) .

وحفظ هذه الأنواع الثلاثة المشار إليها يعنى حمايتها من أى اعتداء عليها . وهذه الحماية حق لكل فرد ، فهى - إذن - تمثل حقوقاً للإنسان بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى . وترجع حقوق الإنسان فى الإسلام - بصفة عامة - إلى حقين أساسيين وهما : حق الإنسان فى المساواة ، وحقه فى الحرية . وكل حقوق الإنسان الأخرى تنبثق من هذين الحقين.

ويؤسس القرآن الكريم حق الإنسان فى المساواة على قاعدتين أساسيتين هما : وحدة الأصل البشرى ، وشمول الكرامة الإنسانية لكل بنى آدم .

أما وحدة الأصل البشرى فإن القرآن الكريم قد أكَّد عليها تأكيداً واضحاً لا يقبل التأويل ؛ حين أشار إلى أن الناس جميعاً قد خُلقوا من

(١) راجع : الموافقات للشاطبى (مرجع سابق) .

نفس واحدة . فلا مجال فى الإسلام لامتيازات طبيعية لفئات أو طبقات أو أجناس أو شعوب فى مقابل شعوب أخرى .

وقد أكّدت السُّنَّة النبوية هذه الحقيقة كما جاء فى خطبة حجة الوداع المشهورة :

« أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ ، كُلُّكُمْ لآدَمَ ، وآدَمُ مِنْ تُرَابٍ ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ وَلَيْسَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ فَضْلٌ إِلَّا بِالتَّقْوَى »(١) .

ومن الملاحظ أن الإسلام يعتمد معياراً للتفاضل بين الأفراد يختلف عن المعايير المتعارف عليها بين الناس . ألا وهو معيار الثراء الداخلى للإنسان ، وما يرتبط به من موقف روحى يحفز الإنسان إلى العمل المثمر وبذل الجهد فى سبيل إقرار الحق والعدل والسلام . وهذا المعيار - بتعبير القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية - يتمثل فى التقوى، التى تعنى العمل الصالح الذى يشمل كل عمل يقوم به الإنسان فى هذه الحياة - دينيًّا كان هذا العمل أم دنيويًّا - طالما قصد به وجه الله ونَفَعَ الناس ودَفَعَ الأذى عنهم .

أما القاعدة الثانية للمساواة فهى شمول الكرامة الإنسانية لكل البشر . وقد تناولناها فى حديث سابق . وقد منح الله هذه الكرامة لكل الناس بلا استثناء لتكون سياجاً من الحصانة والحماية لكل فرد من أفراد

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده ، من حديث أبى نضرة .

الإنسان ، لا فرق بين غنيّ وفقير وحاكم ومحكوم ؛ فالجميع أمام الله وأمام القانون وفي الحقوق العامة سواء .

ومن المعلوم أن حق المساواة في المجتمع الإسلامي مكفول للمسلمين ولغير المسلمين على السواء . وهنا تسري القاعدة القانونية الإسلامية : « لَهُمْ مَا لَنَا وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَيْنَا » (١) .

وإذا كانت حقوق الإنسان لا تُراعَى بصورة كافية في العديد من مناطق العالم الإسلامي ، الأمر الذي يعطي لخصوم الإسلام الفرصة لاتهامه بخُلُوِّه من حقوق للإنسان ، فإن الإسلام ليس مسئولاً عن الممارسات الخاطئة حتى وإن كانت تُرتكب باسمه . ومن يريد أن يتعرف على تعاليم الإسلام الحقيقية فليبحث عنها في مصادره الأصلية وليس في سلوكيات خاطئة أو تفسيرات باطلة يرفضها الإسلام رفضاً تاماً .

* * *

(١) - النسائي في سننه - كتاب : تحريم الدم .

(١٧)
الإنسان والبيئة

من المعروف أن البيئة على وجه العموم تشمل كل ما يحيط بالإنسان من مكوّنات حية أو غير حية . وقد كثر الحديث فى العصر الحاضر عن البيئة ومشكلاتها . وهناك جهود كبيرة تُبذل فى العديد من بلاد العالم وفى المؤسسات الدولية للحد من تلوث البيئة ، وتقليل الأخطار التى يتعرض لها البشر بسبب التلوث الذى يهدد صحة الناس ، ويؤدى إلى تدمير البيئة .

والإسلام فى معالجته لقضايا الإنسان لم يُغفل هذا الجانب لأن الإسلام بطبيعته دين للحياة بكل أبعادها ، بالإضافة إلى أن البيئة تقع فى إطار مسئولية الإنسان عن هذا الكون ، ومن هنا اهتم الإسلام بها اهتماماً فائقاً لأنه يريد للناس أن يعيشوا فى بيئة نظيفة ليكونوا قادرين على القيام بأعباء مسئولياتهم على خير وجه .

ولكن الإسلام حين يتحدث عن قضايا البيئة فإنه لا يقصر ذلك على التلوث المادى للبيئة فى صوره المتعددة ، وإنما يقصد أيضاً التلوث الأخلاقى . فمعالجة الإسلام لهذه القضية تتم بشكل متكامل، كما هو الشأن فى معالجته لكل قضايا الإنسان .

وبدايةً نجد أن الإسلام قد جعل الحفاظ على البيئة جزءاً أساسيًّا من العقيدة . وهذا ما نقرؤه فى الحديث النبوى الشريف :

« الإِيمانُ بِضْعٌ وسَبْعُونَ شُعْبَةً : أَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلهَ إِلَّا الله ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ » (١) .

ويشمل الأذى المشار إليه كل أنواع الإيذاء التى تلوِّث البيئة وتضرُّ بمصالح الناس وصحتهم وأذواقهم ومشاعرهم . فتكدُّس القمامة فى الشوارع أذى يضرُّ بالناس ، والكلمة التى تخدش الحياء أذى يلوِّث البيئة الأخلاقية ويخدش حياء الناس ويُفسد أذواقهم .

ومكافحة هذا الأذى بكل صوره تُعَدُّ من الواجبات الدينية التى يكتمل بها إيمان المؤمن ، وليست أمراً هامشيًّا يمكن التغاضى عنه .

ويقرر الإسلام بصفة خاصة أن الناس شركاء فى أمور عدة من بينها الماء الذى يُعَدُّ شريان الحياة . وما دام الماء شركة بين الناس فلا يجوز لأىٍّ من الشركاء فرداً أو جماعة أن يصدر عنه أىُّ تصرُّف يتسبب فى إلحاق الأذى بالماء لأن ذلك من شأنه أن يجرَّ وراءه الإضرار بصحة الناس الذين يشربون من هذا الماء . ومن هنا يَنْهَى الإسلام عن التبول أو التبرز فى المياه الجارية ، وينسحب ذلك على إلقاء نفايات المصانع وما شاكلها فى المياه الجارية .

(١) سبقت الإشارة إلى هذا الحديث وتخريجه عند تناولنا لموضوع العلاقات الإنسانية (ص ٧٢ هامش ١) .

وكذلك الشأن فى الهواء . فالنهى أيضاً ينسحب على كل ما من شأنه أن يلوّث الهواء ويجعله ضاراً بالصحة . فعوادم السيارات ودخان المصانع وغيرها من ملوّثات للهواء مرفوضة إسلاميًّا لأن الهواء والماء لا يملكه فرد أو جماعة تفعل بهما ما تشاء وإنما هما مِلْكٌ عامٌّ لكل الناس فى كل زمان ومكان .

ويتصل بتلويث البيئة إشغال الطريق بأى شكل من الأشكال ، سواء كان ذلك بإشغاله بمخلّفات البناء أو القمامة أو مخلّفات المستشفيات أو غير ذلك من صور الإشغال التى تعوق حركة الناس وتضرُّ بصحتهم ، أو حتى بإشغال الطريق بالجلوس فيه مما يسبب عنتاً ومشقة للآخرين .

وفى ذلك يقول الرسول الكريم ﷺ :

« إِيَّاكُمْ والجُلُوسَ فى الطُّرُقَاتِ . قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ : مَا لَنَا بُدٌّ مِنْ مَجَالِسِنَا نَتَحَدَّثُ فِيهَا . قَالَ : فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلَّا المَجْلِسَ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ . قَالُوا : وَمَا حَقُّهُ ؟ قَالَ : غَضُّ البَصَرِ ، وَكَفُّ الأَذَى ، وَرَدُّ السَّلَامِ ، والأَمْرُ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْىُ عَنِ المُنْكَرِ »(١) .

ويحذِّر النبى - عليه الصلاة والسلام - من تلويث الطريق بفضلات الإنسان - أو تلويث الأماكن التى يتردد عليها الناس لقضاء مصالحهم ومعايشهم أو يستظلون فيها - ويصف هذا التلويث بأبشع الأوصاف ،

(١) رواه الإمام مسلم فى صحيحه - كتاب : اللباس والزينة

إذ يَعُدُّهُ من الملاعن ؛ كما جاء ذلك فى قوله ﷺ :

« اتَّقُوا المَلَاعِنَ الثَّلَاثَ » (١) .

وهناك فى حياتنا اليومية أمور تعوَّد الناس عليها على الرغم من أنها تُعَدُّ من ملوثات البيئة التى تسبب إزعاجاً للآخرين مثل الضوضاء المفرطة ، ورفع الصوت عند الحديث ، وإساءة استخدام مكبِّرات الصوت فى دور العبادة أو فى الأفراح وغيرها من مناسبات ، والتدخين والمبالغة فى رفع أصوات الأغانى المذاعة من الإذاعة أو «التليفزيون » أو المسجِّلات ؛ فى البيوت أو الشوارع أو السيارات . وهذه أمور تدخل فى إطار الإضرار بالناس المنهىِّ عنه طبقاً للقاعدة النبوية : « لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ » (٢) .

* * *

(١) رواه أبو داود وابن ماجه وغيرهما . ونص الحديث : « اتقوا الملاعن الثلاث : البَرَازَ فى الموارد ، وقارعة الطريق ، والظل » . (انظر : فيض القدير – ج ١ ص ١٣٦) .

(٢) سبق تخريج الحديث فى ص ٢٧ .

(١٨)
(اعملوا فكلٌّ ميسّـرٌ لما خُلق له)

إذا كانت مهمة الإنسان فى هذه الحياة هى إعمار الأرض ، فإن ذلك لن يتحقق إلا بالعمل من أجل البلوغ إلى الهدف . فالحياة بلا عمل مَواتٌ . والإنسان قد أعطاه الله من القوى والطاقات ما يجعله قادراً على قيادة سفينة الحياة بالعمل الجاد المنتج الذى يعود على الفرد والمجتمع بالخير العميم .

ومن هنا كان اهتمام الإسلام بالعمل اهتماماً بالغاً . فالإسلام يربط بشكل مستمر بين الإيمان والعمل الصالح . وهذا العمل الصالح يعنى كل الأعمال التى يقوم بها الإنسان فى حياته ويقصد من ورائها وجه الله ونفع الناس ودفع الأذى عنهم . وكل عمل يشتمل على ذلك فإنه يندرج - أيضاً - تحت مفهومى العبادة والتقوى .

وآيات القرآن التى تشتمل على الربط بين الإيمان والعمل الصالح تفوق الحصر . والنبى ﷺ يخبرنا - فى ربط حكيم - بين الإيمان والعمل بقوله :

« لَيْسَ الإيمانُ بِالتَّمَنِّى وَلَكِنْ مَا وَقَرَ فى القَلْبِ وَصَدَّقَهُ العَمَلُ . وَإِنَّ قَوْماً غَرَّتْهُمُ الأَمَانِيُّ ، وَقَالُوا نُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ ، وَكَذَبُوا ، لَوْ أَحْسَنُوا الظَّنَّ لَأَحْسَنُوا العَمَلَ » (١) .

ومن شأن العمل أن يؤدى إلى تطوير الحياة . ومن خلاله يحصل الناس على أقواتهم فيزرعون ويحصدون . والقرآن الكريم يأمرنا أن نجوب الأرض بحثاً عن الرزق :

﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ﴾ (٢) .

والحياة سلسلة من الأعمال متصلة الحلقات . والذى يقعد عن العمل مع القدرة عليه لا يستحق الحياة ، لأنه بذلك يصبح عبئاً على غيره ويصير طفيليًّا على الحياة ذاتها ، فالقعود عن العمل كسل ممقوت . ومن أجل ذلك يقول عمر بن الخطاب : « لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول : اللهمَّ ارزقنى ، وقد علم أن السماء لا تُمطر ذهباً ولا فضة ، وأن الله تعالى يقول :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِى الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾ (٣) » .

---

(١) كنز العمال : الهندى ١/ ٢٥ .

(٢) سورة الملك : ١٥ .

(٣) سورة الجمعة : ١٠ .

فهناك أسباب ينبغى الأخذ بها للوصول إلى النتائج المرجوّة . والعمل قيمة ينبغى الحرص عليها . فالأخذ بها يؤدى إلى التقدم والارتقاء ، والتخلى عنها يؤدى إلى التخلف والجمود والموت . وقد جاء فى الحديث الشريف :

« مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَاماً قَطُّ خَيْراً مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللهِ دَاوُدَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ » (١) .

وقد أثنى النبى – عليه الصلاة والسلام – على اليد العاملة وقال :

« هَذِهِ يَدٌ يُحِبُّهَا اللهُ وَرَسُولُهُ » .

فالإنسان إذا كان مكلَّفاً بعمارة الأرض فإن ذلك لن يتحقق بأى حال من الأحوال دون عمل . ومِنْ ظلم الإنسان لنفسه ولمسئوليته أن يقعد عن العمل ويبدِّد طاقاته فيما لا يفيد .

ومن ناحية أخرى فإن القعود عن العمل بحجة التفرغ للعبادة أمر لا يقرُّه الإسلام . والقرآن الكريم يقول :

﴿ فمن كان يرجُو لِقاء ربّه فلْيعْملْ عملاً صالِحا ﴾ (٢) .

إن العمل للآخرة مطلوب ، والتعبُّد لله مطلوب . ولكن العمل للدنيا مطلوب أيضاً لأنه الذى يوصِّل إلى ثواب الآخرة ، ويندرج –

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه – كتاب : البيوع .

(٢) سورة الكهف : ١١٠ .

obeikandl.com

أيضاً - تحت مفهوم العبادة . ومن هنا ينبغى أن يعيد المسلمون النظر فى سلوكياتهم ونظرتهم للعمل . فالعمل قيمة دافعة للتقدم . ولن يخرج المسلمون من المأزق الحضارى الخطير الذى وصلوا إليه إلا بأمرين أساسيين : هما العلم والعمل .

وهناك أمر مهم ينبغى أن ندركه جيداً وهو ضرورة التفرقة الواضحة بين الجِدِّ واللَّهْو وعدم الخلط بينهما . فلكلٍّ وقته . والإسلام فى الوقت الذى يدعو فيه إلى العمل يدعو فيه - أيضاً - إلى الترويح المقبول عن النفس استعداداً لاستئناف العمل من جديد ، كما جاء فى بعض الأحاديث النبوية :

« رَوِّحُوا القُلُوبَ سَاعَةً فَسَاعَةً »(١) .

ولكن الإسلام يرفض ملء الوقت كله باللهو والكسل عن العمل المنتج الذى يفيد صاحبه ويفيد مجتمعه .

وكل عمل يُسهم فى دفع عجلة الحياة وجلب الخير للمجتمع هو عمل شريف وصاحبه إنسان شريف يستحق كل التقدير . ولا يجوز لنا أن نستهين بأىِّ مهنة أو حرفة مهما بدت لنا ضئيلة القيمة ، فإنها فى النهاية لها أهميتها فى حركة الحياة ككل ، ولا تستقيم الحياة بدونها ، والتوجيه النبوى يقول :

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه .

« اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ لَهُ »(١) .

والعمل الذهنى مثله مثل العمل العضلى كلاهما ضرورى لحركة الحياة ولا يمكن الاستغناء بأحدهما عن الآخر . وقد كان أنبياء الله جميعاً يمارسون بعض الحرف وفى مقدمتها رعى الغنم ولم يقلِّل ذلك من قيمتهم ومكانتهم .

وقد كان النبى ﷺ - الذى جعله الله قدوة لنا جميعاً - كان يعمل ويخطِّط ، ويتدبَّر الأمور ، ويُعِدُّ لكل شىء عُدَّته ، ويأخذ بالأسباب ثم يتوكل على الله . فالتوكل على الله لا يعنى السلبية وترك العمل وعدم الأخذ بالأسباب ، وإنما هو خطوة تالية بعد إعداد كل شىء . ومن شأن هذا التوكل أن يذكِّر الإنسان بالله ، ويزوِّده بطاقة روحية تجعله أكثر قدرة على التغلب على الصعاب ومواجهة المشكلات بعزيمة لا تلين . فالتوكل على الله - إذن - قوة إيجابية دافعة وليست سلبية أو تواكلاً كما قد يتبادر إلى أذهان البعض ممن لا يدركون حقائق الأمور.

* * *

(١) رواه مسلم فى صحيحه عن علىّ رضى الله عنه .

(١٩)
(إن الله جميل يحب الجمال)

الإسلام دين يحب الجمال ويدعو إليه فى كل شىء . والنبى ﷺ يقول:

« إِنَّ اللهَ تَعَالَى جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ »(١) .

والقرآن الكريم فى العديد من آياته يلفت الأنظار إلى ما فى الكون من تناسق وإبداع وإتقان ، وما يتضمنه ذلك من جمال وبهجة وسرور للناظرين . والإنسان مطبوع على حب الجمال ، سواء كان هذا الجمال فى الأشياء أو فى الأشخاص .

وإذا كان الله يحب الجمال - كما جاء فى الحديث المشار إليه - فإن الإنسان الذى خلقه الله فى أحسن تقويم ، من شأنه - أيضاً - أن يحب الجمال ، مع الفارق الكبير الذى يتمثل فى أن الله هو خالق الجمال ، وخالق حب الجمال فى الإنسان .

ويُعَرَّفُ الجَمَالُ بأنه صفة تُلحظ فى الأشياء وتَبعث فى النفس سروراً ورضاً . أو كما يقول ابن سينا : « جمال كل شىء وبهاؤه هو أن يكون

(١) رواه مسلم والترمذى عن عبد الله بن عمر .

على ما يجب له » ، أو كما ينبغى أن يكون . وهذا يعنى التناسق التام والنظام الكامل . وقد اكتمل ذلك فى خَلْق الكون كله الذى خَلَقَهُ اللهُ فَقَدَّرَهُ تقديراً وأبدعَ صُنْعَهُ ، وأحسنَ كلَّ شىءٍ خَلَقَهُ :

﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ (١) .

ويلفت القرآن نظرنا إلى هذا التناسق فى خَلْق السماء بقوله :

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ (٢) .

وجعل لنا الحدائق بهجة لأنظارنا وسروراً لأنفسنا :

﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾(٣).

وتتكرر فى القرآن الكريم أوصاف الجمال فى خلق السماء وتزيينها لتكون بهجة للناظرين ، وذلك مثل قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ ﴾ (٤) وقوله : ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴾ (٥) .

ويستنكر القرآن من يحرِّم زينة الله بقوله :

---

(١) سورة الملك : ٣ .
(٢) سورة ق : ٦ .
(٣) سورة النمل : ٦٠ .
(٤) سورة الملك : ٥ .
(٥) سورة الحجر : ١٦ .

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾(١) .

والقرآن الكريم يدعونا لأن نتخذ زينتنا عند الخروج إلى المسجد حتى نكون فى أبهى صورة وفى أجمل حال :

﴿ يَا بَنِى آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ (٢) .

والجمال كما يكون فى خَلْق الكون وفى خَلْق الإنسان يكون أيضاً فى الأنعام - كما يقول القرآن الكريم - :

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ (٣) .

ويكون كذلك فى مجال الأخلاق ؛ فى الصفح على سبيل المثال :

﴿ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ (٤) .

وفى الصبر : ﴿ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً ﴾ (٥) .

وغيرهما من صفات أخلاقية ، ويكون - أيضاً - فى الأفعال :

﴿ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً ﴾ (٦) .

كما يكون الجمال فى الأصوات : فقد امتدح النبى (عليه الصلاة والسلام) صوت أبى موسى الأشعرى - وقد سمعه يتغنى بالقرآن وكان جميل الصوت - فقال له :

---

(١) سورة الأعراف : ٣٢ .
(٢) سورة الأعراف : ٣١
(٣) سورة النحل : ٦ .
(٤) سورة الحجر : ٨٥ .
(٥) سورة المعارج : ٥ .
(٦) سورة الأحزاب : ٤٩ .

« لَقَدْ أُوتِيْتَ مِزْمَاراً مِنْ مَزَامِيرِ دَاوُدَ » (١) .

كما كان النبى ﷺ يختار أجمل الأصوات للأذان ، وامتدح بلالاً فى الأذان واصفاً إياه بأنه « أَنْدَى صَوْتاً » (٢) .

والجدير بالذكر هنا أيضاً أن أوصاف الجنة فى القرآن الكريم تمثل صوراً جمالية رائعة تجعل القلوب تهفو إليها ، والنفوس تتحرَّق شوقاً إلى نعيمها .

ومن ذلك يتضح أن الإسلام إذا كان يدعو إلى الجمال فإنه من ناحية أخرى يرفض القبح بجميع أشكاله . ولا يمكن لدين هذا موقفه أن يصادر مشاعر الناس وعواطفهم فى حب الجمال . فالجمال إذا ساد فى كل شىء ، فى أقوالنا وأفعالنا ، فإن النتيجة ستكون حياة جميلة . والحياة الجميلة تدفع إلى كل ما هو جميل . والمجتمع الذى يسود فيه الجمال يسود فيه الذوق الجميل ، والفن الجميل ، والفعل الجميل ، والأدب الجميل ، والسلوك الجميل . أما الذى نَفْسُهُ بغير جمال فإنه لا يرى فى الوجود شيئاً جميلاً ؛ كما عبَّر عن ذلك - بصدق - إيليا أبو ماضى .

وهذا يعنى أن الجمال إحساس داخلى ينعكس بدوره على ما يحيط بالإنسان فيرى كل شىء جميلاً . فالجمال - إذن - ليس فى الشكل الظاهرى فقط وإنما هو فى المقام الأول فى أعماق النفس الإنسانية .

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه .

(٢) رواه أبو داود فى سننه .

ويرتبط الإحساس بالجمال بالتفاؤل والإقبال على الحياة ، وحب الناس والاتجاه إلى عمل الخير . ومن أجل ذلك كان حرص الإسلام على تربية الذوق الجمالى لدى الإنسان المسلم .

ولم يكن ذكر الصور الجمالية البديعة فى القرآن الكريم وصفاً دقيقاً وحقيقيًّا للكون بما فيه من كائنات ومن فيه من البشر إلا ترسيخاً لقيمة الجمال فى النفوس ، وتربية للتذوق الجمالى لدى الأفراد والجماعات ، إذ من شأن ذلك أن يرقِّق المشاعر ويُرهِّف الإحساس ويعمِّق الإدراك . وليس هناك من شك فى أن ذلك كله ينعكس بصورة إيجابية على سلوك الإنسان فى الحياة .

* * *

(٢٠)

(وجعل بينكم مودة ورحمة)

لقد خلق الله سبحانه وتعالى من كل شىء زوجين - كما يقول القرآن الكريم - :

﴿ ومن كُلِّ شىءٍ خلقنا زوجينِ لعلَّكُمْ تذكَّرُون ﴾ (١) .

ويتضح من هذه الآية أن قاعدة الزوجيّة فى الخَلْق تشمل الكائنات الحية وغير الحية . ولكنها فى الكائنات الحية تحقق إرادة الله فى استمرار الوجود وتكاثره إلى ما شاء الله . وعندما خلق الله آدم خلق له حواء لتكون زوجاً له تؤنس وحدته ، وربط بينهما برباط من المودَّة والرحمة ، كما جاء ذلك صريحاً وواضحاً فى قوله تعالى :

﴿ ومن آياته أنْ خلق لكُم مِّنْ أنفُسكُمْ أزْوَاجًا لِّتسكُنُوا إليْها وجعل بينكُم مَودَّةً ورحْمَةً إنَّ فى ذلك لآيَاتٍ لِّقومٍ يتفكَّرُون ﴾ (٢).

ويلحظ المرء فى هذه الصلة بين الزوجين ثلاثة أمور تُعَدُّ الأساس الراسخ للعلاقة الزوجية ، وهى : السكن النفسى ، والمودَّة ، والرحمة.

(١) سورة الذاريات : ٤٩ .

(٢) سورة الروم : ٢١ .

obeikandl.com

أما السكن فإنه يعنى الاطمئنان ، ومنه السَّكِينة التى تكرَّر ذكرها فى القرآن الكريم تعبيراً عن الطمأنينة والأمان النفسى . ومن آيات الله البالغة أن يجد كلٌّ من الرجل والمرأة - على السواء - شريكاً له فى مسيرة الحياة يُفضى إليه بمكنون أسراره ، ويطمئنُّ إليه ، ويجد راحته النفسية بجواره .

أما الأمر الثانى فهو المودَّة ، وتعنى الحب الذى يربط بين القلوب ويؤلِّف بينها . فهو من أسمى العواطف التى تُعَدُّ - أيضاً - من آيات الله البيِّنات فى هذه العلاقة الزوجية الحميمة التى لها قدسيتها وحرمتها ..وقد ظلمت العادات والتقاليد هذه العاطفة النبيلة ، واعتبرت الحديث عنها فى كثير من الأحيان من الأمور غير المرغوب فيها ، كما لو كانت عورة من العورات ينبغى إخفاؤها ، مع أن لفظ الحب بمشتقاته المختلفة قد ورد فى القرآن الكريم عشرات المرات ، وأن أسمى علاقة للإنسان بالله هى علاقة الحب ، وبالتالى فإن أسمى ما يربط بين البشر يتمثل - أيضاً - فى علاقة الحب .

أما الأمر الثالث الذى تشير إليه الآية الكريمة فى الصلة بين الزوجين ، والذى من شأنه أن يصون هذه العلاقة من الشوائب ، فهو الرحمة . والرحمة تأتى على رأس منظومة القيم الأخلاقية الإسلامية. وهى أكثر هذه القيم وروداً فى القرآن الكريم ، وأكثرها وصفاً لله تعالى الذى وسعت رحمته كل شىء ، فهو الرحمن وهو الرحيم .

وفى إطار هذه المعانى النبيلة أراد الله سبحانه وتعالى أن يحيط العلاقة الزوجية بسياج منيع يصونها ويحميها من أى رياح قد تهبُّ عليها . فالالتفات إلى هذه المعانى من شأنه أن يوصد الأبواب أمام العوامل التى يمكن أن تخلخل هذه العلاقة . ومن هنا كان ختام الآية الكريمة التى أشارت إلى هذه المعانى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١) .

وإذا كانت العلاقة الزوجية تتأسس على هذه القيم فإن ذلك يعنى أن لها مكاناً مفضَّلاً يكاد يصل إلى حد القداسة لأنها أساس قيام المجتمعات البشرية . ومن هنا فإنه لا ينبغى الإساءة إلى هذه العلاقة التى جعلها القرآن الكريم « ميثاقاً غليظاً » ، وعهداً مشدَّداً .

وقد عبَّر القرآن الكريم عن العلاقة الزوجية بأنها نعمة من نعم الله، وأن ما ينتج عنها من ذرية يُعَدُّ - أيضاً - من نعم الله . وهذا ما يؤخذ من قول الله تعالى :

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ (٢) .

---

(١) سورة الروم : ٢١ .

(٢) سورة النحل : ٧٢ .

ومن ذلك يتضح لنا مدى حرص الإسلام البالغ على سلامة العلاقة الزوجية التى هى الأساس المكين لتكوين الأسرة التى تُعَدُّ اللَّبِنَةَ الأساسية لبناء المجتمعات وصيانتها من الانهيار ، حتى ينشأ الأطفال فى جوٍّ أسرىٍّ صحىٍّ تسوده المحبة والطمأنينة والرحمة .

ولكن هذه العلاقة إذا شابتها الشوائب ، وتخلخلت عُراها وانفرط عقدها ، وأصبح استمرارها أمراً عسير المنال ، فإن الإسلام يلجأ فى هذه الحالة إلى حل أخير غير مرغوب فيه أصلاً ، وهو الطلاق الذى يُعَدُّ أبغض الحلال إلى الله . وحتى فى هذه الحالة يكون الفراق بالمعروف ، ولا يجوز إساءة أىٍّ من الطرفين للآخر ﴿ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾ (١) .

فالزوج مُطَالَبٌ إما بالإبقاء على هذه العلاقة بالمعروف أو المفارقة بالمعروف : ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾(٢) . ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً ﴾ (٣) . فلعل كلاًّ منهما يعود إلى رشده ويثوب إلى صوابه بعد أن تهدأ النفوس وتسكن ، وتعود العلاقة الزوجية بينهما مرة أخرى . ومن هنا لا يجوز قطع كل العلائق والتنكر تماماً لهذه العلاقة التى كانت فى يوم من الأيام علاقة حميمة . فإذا لم يكن هناك من سبيل إلا الانفصال النهائى بينهما فلعل فى ذلك الخير لكل

(١) سورة البقرة : ٢٣٧ .
(٢) سورة الطلاق : ٢ .
(٣) سورة الأحزاب : ٤٩ .

منهما ، والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ واسعًا حكيمًا﴾(١) .

* * *

(١) سورة النساء : ١٣٠ .

obeikandl.com

(٢١)
(كل بنى آدم خطّاء)

لقد رُوى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قوله : « إنما سُمِّىَ الإنسانُ إنساناً لأنه عُهِدَ إليه فَنَسِىَ » . ولعله بذلك يقصد قول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾(١). فقد أمر اللهُ الإنسانَ الأوَّل - آدم عليه السلام - بعدم الأكل من الشجرة المحرَّمة ، ولكنه نسى - كما يقول القرآن الكريم - وأكل من الشجرة ، وبذلك خالف أمر ربه .

ولكن رحمة الله - التى وسعت كل شىء - فتحت له أبواب الأمل عن طريق التوبة . ويخبرنا القرآن الكريم بذلك فى العديد من الآيات . وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾(٢) . وقوله فى آية أخرى : ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ (٣) .

ومن ذلك يتبين لنا حقيقتان مهمتان ؛ أُولاهما : أن الإنسان ليس معصوماً من الخطأ . فهو ليس من الملائكة الذين ﴿ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا

(١) سورة طه : ١١٥ .
(٢) سورة البقرة : ٣٧ .
(٣) سورة طه : ١٢١ ، ١٢٢ .

أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (١) . كما أنه ليس حيواناً لا يَعقل ولا يُسأل عما يَفعل . إنه كائن عاقل متوسط بين هذين الصنفين ومسئول عن كل ما يصدر عنه . وليس عيباً أن يخطئ المرء ، ولكن العيب - كل العيب - أن يصرَّ على الخطأ .

أما الحقيقة الثانية فتتمثل فى أن الله قد فتح أمام الإنسان باب التوبة إذا أخطأ ليعود إلى رشده ويتوب إلى ربه . وفى ذلك يقول النبى ﷺ :

« كُلُّ بَنِى آدَمَ خَطَّاءٌ ، وَخَيْرُ الخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ » (٢) .

والإنسان بوصفه كائناً عاقلاً يُفترض فيه أنه يتعلم من أخطائه . وهذا يعنى أنه ينبغى ألَّا يكرِّر أخطاءه . والمؤمن لا يُلدغ من جُحْر مرتين - كما جاء فى الحديث الشريف - (٣) . ولكن الإنسان كثيراً ما ينسى أو يتناسى ، ويتكرر منه الخطأ مرة ومرات . وقد يصل به الأمر إلى حد الميل إلى اليأس من قبول توبته فيظل سادراً فى غيِّه . ولكن الله رحيم بعباده ، لا يردُّ أحداً يلجأ إليه مهما اقترف من ذنوب وأسرف على نفسه بالأخطاء مادامت توبته صادقة ، وأَوْبَتُهُ إلى ربه مخلصة ؛ فباب الأمل فى عفو الله ورحمته مفتوح دائماً .

---

(١) سورة التحريم : ٦ .

(٢) رواه أحمد والترمذى عن أنس بن مالك (فيض القدير للمناوى ٥/ ١٦) .

(٣) رواه البخارى فى صحيحه - كتاب : الأدب .

ويوجِّه الحق تبارك وتعالى النداء إلى الذين أسرفوا على أنفسهم بالذنوب والآثام بهذا النداء الرَّبَّانيِّ الرحيم :

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (١) .

والله يفرح بتوبة عبده - كما جاء فى الحديث الشريف (٢) - ويخبرنا القرآن الكريم بأن الله تعالى ﴿يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾(٣).

وهذا التعبير القرآنى يدعونا إلى تأمُّله والتفكير فيه . فالتائب هو إنسان قد أذنب وخالف أمر ربه . ولكنه عاد إلى صوابه واعترف بذنبه، وعزم على العودة إلى ربه تائباً مستغفراً الله . ويكفى - بمنطق إنسانى - أن يقبل الله توبته ويعفو عنه .

ولكن الله سبحانه إذ يفتح له ولأمثاله باب رحمته فإنه يُعلن فى الوقت نفسه أن التائبين جديرون بحب الله لهم . فالله يحب التائبين ويفرح بتوبتهم ، لأنهم لم يستمروا فى غيِّهم ، ولم يستمرئوا الابتعاد عن ربهم ، بل راجعوا أنفسهم ، وعادوا إلى ربهم يرجون رحمته ويخافون عذابه ؛ ومن أجل ذلك يحبهم الله ويشملهم برحمته ورضوانه .

---

(١) سورة الزمر : ٥٣ .

(٢) رواه مسلم عن أنس بن مالك : « لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم .... » إلى آخر الحديث .

(٣) سورة البقرة : ٢٢٢ .

ولا شك أن ذلك كله يتعلق بالذنوب التى اقترفها الإنسان فى حق الله . أما ما يتعلق بحقوق العباد فله شأن آخر ، إذ تبقى هذه الحقوق معلَّقة فى رقاب من انتهكوها حتى يردُّوها إلى أصحابها . ولا يكفى هنا التوبة عن هذه الانتهاكات إلا إذا عفا أصحاب هذه الحقوق . فلا يُعقل أن يغتصب أحد مال غيره أو يعتدى عليه بأى شكل من الأشكال ثم يتوب ويبقى الإحساس بالظلم والقهر لدى مَنْ وقع عليه الظلم ، ويتساءل فى أَسًى وحسرةٍ : أين العدل - إذن - ؟.

ومن هنا فإنه لا يجوز استغلال فتح باب التوبة على مصراعيه بالتوبة عما اقترف المرء من آثام تتعلق بحقوق العباد دون ردِّ هذه الحقوق إلى أصحابها . فالله سبحانه وتعالى لا يظلم أحداً ولا يرضى بظلم أحد ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ (١) .

والإسلام يتشدد فى هذا الجانب ولا يتهاون فيه ترسيخاً لقواعد العدل ورفعاً للظلم عن كاهل المظلومين . وقد روى الإمام مسلم فى صحيحه أن سائلاً سأل النبى (عليه الصلاة والسلام) قائلاً :

« يا رسول الله ، إذا قُتلتُ فى سبيل الله تُكفَّر عنِّى خطاياى . قال: نَعَمْ .. إلَّا الدَّيْن » .

فلابد من ردِّ الديون والأموال المغتصبة ، أو التى تم الحصول عليها

(١) سورة فصلت : ٤٦ .

بطرق غير مشروعة عن طريق الغشّ أو السلب أو النهب أو الرشوة أو غير ذلك ، أو استرضاء أصحاب هذه الحقوق . وبدون ذلك لا تكتمل التوبة .

* * *

obeikandl.com

(٢٢)

الإنسان واللغة

لقد أنعم الله على الإنسان بنعمة القدرة على الكلام . ولكل قوم لغة يتخاطبون بها ، ويعبِّرون بها عن أغراضهم . واللغة بصفة عامة يمكن تعريفها بأنها « كل وسيلة لتبادل المشاعر والأفكار » ، ويشمل ذلك – بطبيعة الحال – الإشارات والأصوات والألفاظ . ويشترك الإنسان مع الحيوان فى الإشارات والأصوات التى تصدر بطريقة عفوية نتيجة انفعالات اللذة أو الألم . ولكن لغة الإنسان تنفرد بأنها تعبير مقصود بألفاظ وأصوات تواضعَ الناس عليها وتختلف باختلاف الشعوب والأزمان .

والقرآن الكريم يبيِّن لنا أن هذا الاختلاف الواقع بين الشعوب فى لغاتهم يُعَدُّ آية من آيات الله التى لا تقلُّ فى أهميتها ودلالاتها عن غيرها من الآيات الكبرى فى هذا الوجود مثل خلق السموات والأرض . وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ

﴿ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴾ (١).

وتشتمل هذه الآية الكريمة على آيات ودلائل كونية وأخرى إنسانية، وكلاهما من الآيات البيِّنات على قدرة الله سبحانه وتعالى على أنه هو الحق ؛ كما جاء فى آية أخرى :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (٢).

ومن ناحية أخرى فإن الجمع بين خَلْق السموات والأرض واختلاف الناس فى لغاتهم وألوانهم يوحى بأن هناك علاقة بينهما . فالكون مع ضخامته وعظمته ودقة صنعه أراد الله له أن يكون مسخَّراً للإنسان ومجالاً لبحثه ودراسته والنظر فيه عن طريق العلم الذى يدوِّنه الإنسان بمختلف اللغات وبشتَّى الأساليب .

وحينما يلفت القرآن الكريم الأنظار إلى ما فى الأرض وما فى الأنفس من آيات باهرات ، ويؤكد أن الله سبحانه قد ضمن الأرزاق ، يقسم الله بأن هذا كله حق ، مثلما هو حق - أيضاً - أنكم تنطقون ، وتملكون لغة تعبِّرون بها عن أغراضكم :

﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ

(١) سورة الروم : ٢٢ .
(٢) سورة فصلت : ٥٣ .

﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾[1].

ومن الواضح أن النطق أو الكلام يتطلب التفكير ، لأن الكلام تعبير مقصود عما يجول فى النفس . ومن هنا فإن العاقل هو الذى يفكر ثم يتكلم ، وهذا يعنى أن عقله يسبق لسانه ، أما الأحمق فإنه يندفع فى الكلام دون تفكير ، أى أنه ينطق قبل أن يفكر ، وهذا يعنى أن لسانه يسبق عقله فيعرِّضه ذلك للمهالك .

ولعل تعريف القدماء للإنسان بأنه « حيوان ناطق » قد لحظوا فيه هذا المعنى ، أى : الارتباط بين التفكير والنطق . ومن أجل ذلك تفسر عبارة : « حيوان ناطق » بعبارة أخرى مساوية لها وهى « كائن عاقل ».

والمشتغلون باللغات يتحدثون عن بعض النظريات حول نشأة اللغات . فبعضهم يميل إلى القول بأن اللغة توقيفية ، أى أنها إلهام من الله زوَّد بها البشر ، بينما يذهب فريق آخر إلى أن اللغة وضعية ، أى : من وضع البشر الذين اتفقوا على مجموعة رموز وألفاظ للتعبير من خلالها عن المشاعر والأفكار . وهذا يعنى أن اللغة الوضعية تُعَدُّ من الظواهر الاجتماعية التى تختلف باختلاف الشعوب والعصور .

وبصرف النظر عن الخلاف بين أصحاب الاتجاهين المشار إليهما فإن هناك واقعاً يتمثل فى اختلاف اللغات باختلاف الأمم والعصور ، وأن

---

(١) سورة الذاريات : ٢٠ - ٢٣ .

هذا الاختلاف يُعَدُّ من آيات الله فى هذا الوجود كما سبق أن أشرنا .

ومن منطلق هذا الاختلاف الواقع فى اللغات بين الأمم والشعوب كان من الطبيعى أن يرسل الله رسله إلى أقوامهم لتبليغ رسالته باللغات التى تتحدث بها هذه الأقوام ، حتى يكون هناك معنى لإرسالهم ، وحتى يفهموا ما جاءهم به الرسل من عند ربهم . وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ (١) .

وإذا كان اختلاف الناس فى ألسنتهم وألوانهم من آيات الله ، فإن خَلْق الناس شعوباً وقبائل مختلفة يُعَدُّ من آيات الله أيضاً . وبما أن القرآن قد أخبرنا بأن اختلاف الناس إلى شعوب وقبائل لا يشكِّل حائلاً بينهم وبين التعارف الذى تشير إليه الآية الكريمة ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ (٢) ؛ فإن هذا التعارف لن يتم بصورة صحيحة إلا عن طريق اللغة .

وإذا كان الناس مختلفين فى لغاتهم فإن عليهم أن يجدوا وسيلة للتفاهم . وهذا لن يتم إلا بتعلُّم بعضهم لغة بعض حتى يمكن أن يكون هناك تعارف وتواصل فكرى ، وما يترتب على ذلك من التآلف

---

(١) سورة إبراهيم : ٤ .

(٢) سورة الحجرات : ١٣ .

والتعاون فى جميع المجالات من أجل خير الإنسان فى كل زمان ومكان . وهذا يبيِّن لنا قيمة اللغة وأهميتها فى حياة الأفراد والجماعات ، وأنها من أجلِّ النعم التى أنعم الله بها على الإنسان لتساعده فى القيام بمسئوليته عن هذا الكون الذى يعيش فيه .

❁ ❁ ❁

obeikandl.com

(٢٣)

(وأنفقوا مما جعلكم مستخلَفين فيه)

يُعَدُّ المال عصب الحياة ، إذ لا تستقيم الحياة بدونه . فهو وسيلة الإنسان لتحقيق الكثير من المنافع للأفراد والجماعات . ولكنه ليس هدفاً فى حد ذاته ، ولا ينبغى أن يكون كذلك . والمال - كما هو معروف - له جاذبية خاصة لدى الإنسان . ولذلك يستحوذ على قلوب الناس ، ويحظى باهتماماتهم . ويصف القرآن الكريم حال المنهمكين فى جمع المال بقوله : ﴿ وتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جمًّا ﴾ (١) أى : حباً كثيراً مع الحرص عليه والشَّرَه فى جمعه .

ولكن لا يجوز أن يُفهم من ذلك أن المال يُعَدُّ شرًّا لا يجوز الاقتراب منه . فهو وسيلة فى يد الإنسان مثل أىِّ وسيلة أخرى . والأمر يتوقف على أسلوب الإنسان فى استخدام هذه الوسيلة فى مجالات الخير أو مجالات الشر .

وحب الإنسان للمال ليس بالأمر الغريب . فالإنسان بطبعه شغوف بحب الدنيا ، والمال يُعَدُّ زينة الحياة الدنيا ، كما يقول القرآن الكريم:

---

(١) سورة الفجر : ٢٠ .

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[1].

فالارتباط وثيق بين حب المال وحب الدنيا . ونظراً لتمكُّن حب المال فى النفس الإنسانية فإن حديث القرآن عن الجهاد يتقدم فيه الجهاد بالأموال على الجهاد بالأنفس :

﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾[2].

وقد تكرَّر ذلك كثيراً فى العديد من الآيات التى تحضُّ على الجهاد ، مما يدل على حب الإنسان الغامر للمال ، الأمر الذى يجعله على استعداد للقتال من أجله والتضحية فى سبيله . ولذلك يرجع السبب فى معظم الجرائم إلى المال .

ولكن القرآن الكريم ينبِّهنا إلى حقيقة مهمة تتمثل فى أن ملكية الإنسان للمال ليست ملكية مطلقة . ومن أجل ذلك فإنه لا يجوز للإنسان أن يتصرف فيه تصرُّفاً لا تحكمه قيم أو قواعد أخلاقية أو دينية. فالمال فى الحقيقة مال الله الذى وَكَّلَ الإنسان فى إنفاقه . وفى ذلك يقول القرآن الكريم : ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾[3] . كما يقول فى آية أخرى : ﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾[4].

---

(١) سورة الكهف : ٤٦ .
(٢) سورة التوبة : ٤١ .
(٣) سورة الحديد : ٧ .
(٤) سورة النور : ٣٣ .

وإذ يؤكِّد الإسلام على هذه الحقيقة التى لا مراء فيها فإنه من ناحية أخرى يحمى ملكية الأشخاص للمال - التى هى ملكية مجازية - ويعتبر الذى يُقتل دفاعاً عن ماله من الشهداء ، كما ورد فى الحديث الشريف :

« مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ » (١) .

وإذا كان الإسلام لا يشجِّع على رفض الدنيا والتخلِّى عنها فإنه - أيضاً - لا يشجِّع على رفض المال والتخلِّى عنه لأنه ضرورى لاستمرار الحياة . ومن أجل ذلك يحث الإسلام على السعى لكسب المال حتى لا يكون المرء عالة على غيره ، وحتى لا يعرِّض الإنسان نفسه لذلِّ السؤال- فاليد العليا خير من اليد السفلى - وحتى يضمن لأسرته حَدًّا معقولاً من الحياة الكريمة ، وألَّا يتركهم من بعده عالة يتكففون الناس؛ كما جاء فى الحديث الشريف :

« إِنَّكَ إِنْ تَذَرْ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ » (٢) .

إن الأمر الذى يؤكِّد عليه الإسلام فى إنفاق المال يدور حول الطريقة التى يتصرف بها الإنسان فى المال . فإذا كنزه وحبسه عن الإنفاق بخلاً وشُحًّا فالقرآن يُنذره بعذاب شديد يوم القيامة ، وإذا أنفقه بطريقة لا

(١) رواه البخارى فى صحيحه - كتاب : المظالم .
(٢) رواه البخارى فى صحيحه - كتاب : الجنائز .

يحكمها عقل ولا منطق فهو من السفهاء الذين يجب الحَجْرُ عليهم ، أما إذا أنفقه فى وجوه الخير فإن ثوابه عند الله عظيم :

﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (١) .

والإنسان من حقه أن يتمتع بما حباه الله به من نعمة المال . فإذا كان المال يُعَدُّ زينة الحياة الدنيا فإن القرآن يبيح للإنسان أن يتمتع بما أسبغ الله عليه من نعم فى الحدود المعقولة . ولهذا يستنكر القرآن تحريم ما أحلَّ الله بقوله :

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾(٢) .

ولكن الأمر الذى لا يجوز أن يتجاهله الإنسان أنه لا يعيش وحده وإنما هو عضو فى مجتمع ، وأنه لكى يعيش سعيداً فى هذا المجتمع فإن عليه حقوقاً للفقراء والمحتاجين فى هذا المجتمع ، وعليه أن يُشعرهم - أيضاً - بقدر من السعادة حتى يمحو ما فى نفوسهم من حسد أو حقد .

وهذا يعنى أن ما ينفقه الإنسان للفقراء والمحتاجين ليس تفضُّلاً ،

---

(١) سورة البقرة : ٢٧٤ .
(٢) سورة الأعراف : ٣٢.

وإنما هى حقوق قرَّرها الإسلام لتحقيق التكافل الاجتماعى بين الناس. ويعبِّر القرآن الكريم عن ذلك بقوله :

﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ (١) .

ويأمر الله نبيه أن يأخذ الصدقات من الأغنياء تطهيراً لنفوسهم من عوامل الشُّحِّ والبُخْل وتزكية لأموالهم :

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ (٢) .

ومن ذلك يتضح أن الإنسان يتحمَّل المسئولية عن ماله كسباً وإنفاقاً، وسوف يسأله الله يوم القيامة عن ماله من أين اكتسبه وفيمَ أنفقه - كما ورد فى الحديث الشريف - (٣) . وهذا أمر ينبغى على الإنسان أن يضعه دائماً نُصْبَ عينيه ، لأن المال قد يجعل صاحبه يتجبر ويتكبر ، كما جاء فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴾ (٤) .

ولكى يحدَّ الإسلام من تمادى الإنسان فى ذلك يذكِّره القرآن الكريم بنهايته فى قوله : ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴾ (٥) ، فإليه وحده المرجع

---

(١) سورة الذاريات : ١٩ .

(٢) سورة التوبة : ١٠٣ .

(٣) تقدم تخريجه فى صفحة ٥٢ .

(٤) سورة العلق : ٦ ، ٧ .

(٥) سورة العلق : ٨ .

والمصير ، والكل منه وإليه . ونحن مستخلَفون فى إنفاق المال ، وموكَّلون من رازق المال بحسن التصرف فيه بالطريقة التى تعود بالخير على صاحب المال وعلى أسرته وعلى المجتمع كله . وهذا أمر يمكن الوفاء به إذا استطاع الإنسان أن يوازن فى إنفاقه للمال بين مطالبه وحقوق الله وحقوق العباد . وعندئذٍ ينطبق عليه قول النبى ﷺ :

«نِعْمَ المَالُ الصَّالِحُ لِلْمَرْءِ الصَّالِحِ »[1] .

* * *

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده ، من حديث عمرو بن العاص .

obeikandl.com

(٢٤)
(اعدلوا هو أقرب للتقوى)

يُعَدُّ العدلُ من الفضائل الكبرى لدى كل الشعوب وفى مختلف الحضارات ، ومن هنا فإن إرساء دعائم هذه القيمة وتطبيقها فى المجتمع ينبغى أن يكون هدفاً أساسيًّا يسعى الإنسان لتحقيقه وإقراره من أجل خير الأفراد والجماعات .

والعدل هو إعطاء كل ذى حق حقه ، وهو فضيلة فردية وفى الوقت نفسه فضيلة اجتماعية لأنه يتعدى إلى الغير . والإنسان فى أصل فطرته الصافية يميل إلى العدل وينفر من الظلم . ولا نعدو قول الحق إذا قلنا إن العدل يُعَدُّ ضرورة حياتية ، إذ لا يستطيع الإنسان أن يحيا حياة حقيقية بدونه . ومن أجل ذلك يشير القرآن الكريم إلى أن قيام الناس بالقسط أو بتحقيق مبدأ العدل كان من الأهداف الأساسية لإرسال الرسل ، وذلك فى قوله تعالى :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ (١) .

(١) سورة الحديد : ٢٥ .

والإسلام عندما يدعو إلى العدل ويأمر به ؛ كما جاء ذلك فى وضوح فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ﴾ [1] ؛ فإن ذلك يُعَدُّ فى الوقت نفسه دعوة إلى حرية الإنسان وكرامته وتأكيد حقوقه الإنسانية العامة . ولذلك يُعَدُّ الكفاح من أجل رفع الظلم عن المظلومين وتحقيق العدل بين الناس من الواجبات الإنسانية والدينية على السواء . ويشير القرآن الكريم إلى هذه المسئولية بقوله :

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ ﴾ [2] .

إن الإنسان - إذن - مسئول مسئولية دينية وأخلاقية عن إقامة العدل الذى هو أساس العمران فى هذا الوجود . وهذا يعنى ضرورة التغلب على نوازع الأنانية ، وتغليب جانب العقل . وهذا - بدوره - يعنى بقاء الأمل فى تحقيق العدل حيًّا فى النفوس . وهذا الأمل يشكِّل دافعاً قويًّا للتصميم على السعى نحو تحقيق العدل ، الأمر الذى يمكن أن يؤدى فى النهاية إلى أن يصبح العدل فى حياتنا حقيقة واقعة، وأن يوجِّه سلوكنا ويحدِّد تصرُّفاتنا .

وعند التأمل فى مفهوم العدل يتضح لنا أن للعدل جانبين لا يجوز أن ينفصل أحدهما عن الآخر . فالإنسان من ناحية فى حاجة إلى العدل

(١) سورة النحل : ٩٠ .
(٢) سورة النساء : ٧٥ .

يطلبه ويسعى إلى تحقيقه ، ولكن العدل من ناحية أخرى فى حاجة إلى الإنسان من أجل تحقيقه والعمل على إقراره . فالإنسان - بدون العدل - لا يستطيع أن يحيا حياة حقيقية لها معنى ، والعدل بوصفه « قيمة مثالية » ليست شيئاً وتظل شعاراً فارغاً من أى مضمون إذا لم يكن هناك إنسان يعمل على تحقيقها فى عالم الواقع . فالعدل ضرورى للإنسان مثلما أن الإنسان ضرورى لتحقيق العدل .

ولكن هذه الحقيقة البسيطة غالباً ما تغيب عن الإنسان ، أو - بمعنى أصح - غالباً ما يتجاهلها الإنسان . وحينئذٍ يُستخدم العدل كستار أو كشعار لبلوغ أهداف ذاتية . وبذلك الفكر الأنانى يبتعد المرء عن طريق العدل ، ويخطئ الطريق ، ويجد نفسه سائراً فى طريق الظلم.

إن الأمر الذى لا ينبغى أن يغيب عن الأذهان أن العدل قيمة لا تتجزأ . فلا يمكن أن يطلب المرء العدل لنفسه ، وفى الوقت ذاته يرتكب الظلم فى حق الآخرين ، فالناس جميعاً قد خُلقوا من نفس واحدة ؛ كما يقول القرآن الكريم . وعلى هذا الأساس ينبنى التضامن بين الناس والذى يقتضى العدل للجميع .

ومفهوم العدل فى التصور الإسلامى مرتبط ارتباطاً وثيقاً بحرية الإنسان . والصيحة التى أطلقها الخليفة الثانى عمر بن الخطاب وقال فيها : (مَتَى اسْتَعْبَدْتُمُ النَّاسَ وَقَدْ وَلَدَتْهُمْ أُمَّهَاتُهُمْ أَحْرَاراً) كانت نتيجة ظلم وقع على أحد المصريين فى حادثة مشهورة ، مما يؤكِّد ارتباط العدل بالحرية .

ونظراً لأن العدل قيمة لا تتجزأ فإنه ينبغى أن يتحقق فى جميع الأحوال وفى مختلف الظروف دون أى استثناءات مهما كانت مبرراتها . فالإسلام يرفض التحيُّز فى تطبيق مبدأ العدل ولا يوافق بأى حال من الأحوال على أىٍّ مبرر لعدم تطبيقه .

والقرآن الكريم حين يأمرنا بالعدل فإن هذا الأمر يسرى على كل الناس دون تمييز ودون نظر إلى معتقداتهم أو أجناسهم أو انتماءاتهم أو وضعهم الاجتماعى من حيث الغنى أو الفقر أو الجاه والنفوذ . وفى ذلك يقول القرآن الكريم : ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ (١) . وتعبير القرآن هنا بلفظ « الناس » تعبير مقصود ليشمل كل الناس فى كل زمان ومكان .

ومن المأثورات الإسلامية فى هذا الصدد ما يُروى من أن أسامة بن زيد قد تشفَّع لدى النبى ﷺ فى أمر العفو عن المرأة المخزومية التى سرقت ، وكانت من أسرة لها مكانتها فى المجتمع . وقد رفض النبى ذلك رفضاً قاطعاً - فى حديث مشهور (٢) - مؤكِّداً ضرورة تطبيق معيار واحد على الجميع بصرف النظر عن أىِّ اعتبار آخر .

ومن الأمور التى تسترعى الانتباه فى التطبيق الإسلامى لمبدأ العدل

---

(١) سورة النساء : ٥٨ .

(٢) رواه الإمام مسلم (٣/ ١٣١٥) : « إن من كان قبلكم إذا سرق فيهم الضعيف قطعوه ، وإذا سرق فيهم القويُّ تركوه . واللهِ لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » .

ذلك التحذير الشديد من خطورة تغلُّب مشاعر الكراهية أو العداوة إزاء بعض الناس أو الجماعات ، وتأثير ذلك بالسلب على تطبيق مبدأ العدل . وفى ذلك يقول القرآن الكريم فى صراحة ووضوح :

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ (١) .

ويشدِّد الإسلام على الالتزام بالعدل حتى فى حالة ما إذا كان الأمر يتعلق بشخص الإنسان أو والديه أو أقاربه ومحبِّيه . وفى ذلك يقول القرآن :

﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ ولوْ علىٰ أَنفُسِكُمْ أوِ الْوالِدَيْنِ والأَقْرَبِينَ ﴾ إلى قوله تعالى :

﴿ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ﴾ (٢) .

تلك كانت بعض الإشارات التى تُبيِّن لنا مدى التزام الإسلام بتحقيق مبدأ العدل التزاماً مطلقاً لا تهاون فيه ، لأن المجتمع الذى يتحقق فيه العدل يتحقق فيه - بالتالى - الحفاظ على حقوق الإنسان وكرامته ، وفى الوقت نفسه يجعله متفائلاً وإيجابيًّا وفعَّالاً ، وهذا من

---

(١) سورة المائدة : ٨ .

(٢) سورة النساء : ١٣٥ .

شأنه أن يجعل منه مواطناً صالحاً وعضواً نافعاً يعمل من أجل خير مجتمعه وتقدُّم بلاده .

* * *

obeikandl.com

(٢٥)
(والذين آمنوا أشد حبًّا لله)

التكوين الإلهى للإنسان فيه الكثير من الآيات الباهرة التى جعلها الله من دلائل قدرته ، والبحث فيها بإخلاص من شأنه أن يُعين الإنسان على التوصُّل إلى أن الله سبحانه وتعالى هو الحق وهو رب العالمين . ويشير القرآن الكريم إلى ذلك فى قوله تعالى :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ وَفِى أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (١) .

والإنسان فى تكوينه ليس جسماً وعقلاً فحسب ، إنه بالإضافة إلى ذلك ينفعل ويشعر باللذة والألم ، ولديه عواطف وانفعالات وأهواء تختلف عن عمليات التصوُّر والتفكير التى هى من خصائص العقل .

والعواطف تُعَدُّ تجارب وجدانية . وقد اعتاد الناس أن يطلقوا وصف « عاطفى » على الإنسان الذى ينفعل بسرعة ولا يستطيع أن يسيطر على نفسه . وهذا المعنى السلبى لا يعبِّر تماماً عن العاطفة فى

(١) سورة فصلت : ٥٣ .

صورتها الإيجابية والتى من شأنها أن تدفع الإنسان إلى سلوك معين إزاء إنسان أو حيوان أو مجموعة من الناس أو فكرة معينة ، وذلك مثل عاطفة الحب أو الكره . فالإنسان قد يتعاطف مع شخص آخر أو مع فكرة من الأفكار ، وقد ينفر من هذا الشخص أو تلك الفكرة .

وعلى الرغم من أن عاطفة الحب قد أصبح لها لدينا « عيد » يحتفل الناس به فإن الحديث عن هذه العاطفة لا يزال فى حاجة إلى وضوح فى الأذهان . فالإنسان منا يحب ويكره ويغضب ويفرح ويحزن . وهذه كلها حالات طبيعية وليست أمراً شاذًّا . أما الشاذ فهو تبلُّد الإحساس وتحجُّر العواطف ، وانغلاق القلوب .

ونود هنا أن يقتصر حديثنا على عاطفة الحب التى يُنظر إليها فى كثير من الأحيان نظرة متدنية لا تتفق مع سُمُوِّها . وقد تناول حجة الإسلام الغزالى (المتوفى ١١١١م) هذه العاطفة الإنسانية بالشرح والتفصيل فى كتابه « إحياء علوم الدين » ، متدرِّجاً فى شرحها حتى وصل بها إلى الدرجة التى تجد فيها هذه العاطفة منتهى كمالها متمثلة فى محبة الإنسان لله . وقد مهَّد الغزالى لذلك بالحديث عن هذه العاطفة وأقسامها والأسباب التى تدعو الإنسان إلى الحب فى هذه الحياة ، وأورد ذلك تحت عنوان « بيان حقيقة المحبة وأسبابها وتحقيق معنى محبة العبد لله ».

ويرى الغزالى أن المحبة لا تُتصوَّر إلا بعد معرفة وإدراك ، إذ لا يحب الإنسان إلا ما يعرفه ، لأن الحب من خصائص الحىِّ المدرك . ويُعرِّف

الحب بأنه عبارة عن ميل الطبع إلى الشيء المُلِذّ ، فإن تأكد ذلك الميل وقوى سُمِّيَ عشقاً . والحب فى نظر الغزالى أنواع : فلكل حاسَّة من الحواسّ إدراك لبعض الموجودات ، ولكل واحدة منها لذة فى بعض المدرَكات ، ولهذا يميل الطبع إليها ، وتُعَدُّ من المحبوبات عند الطبع السليم. فلذَّة العين فى إدراك المُبْصَرات الجميلة والصور المليحة الحسنة، ولذَّة الأذن فى النغمات الطيِّبة ، ولذَّة الشَّمِّ فى الروائح الطيِّبة... وهكذا.

ويورد الغزالى فى هذا الصدد قول الرسول ﷺ :

«حُبِّبَ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا النِّسَاءُ والطِّيبُ ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِى فى الصَّلَاةِ»[1] .

ومن المعلوم أن الإنسان يتميز عن الحيوان بأن مدرَكاته لا تقتصر على الحسِّ فقط ، بل يتجاوز ذلك إلى مدرَكات العقل والقلب أو ما يسمِّيه الغزالى بالحسِّ السادس الذى يعبِّر عنه كما يقول : « بالعقل أو بالنور أو بالقلب أو بما شئت من العبارات » . ومن أجل ذلك تدخل الصلاة التى أشار إليها الحديث المشار إليه فى إطار مدركات الحسِّ السادس . وتُعَدُّ مدخلاً لمحبة الله سبحانه وتعالى رغم أننا لا نراه . «فالبصيرة الباطنة أقوى من البصر الظاهر ، والقلب أشد إدراكاً من العين ، وجمال المعانى المدرَكة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة للأبصار » .

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده ، من حديث أنس بن مالك .

ويُبيِّن الغزالى أنه لا يَخْفَى أن الإنسان يحب نفسه ، وقد يحب غيره لأجل نفسه . فالمحبوب الأول للإنسان هو ذاته وكمالها ودوامها ثم ماله وولده وعشيرته وأصدقاؤه . ولكن هناك أموراً يحبها الإنسان لذاتها وليس لأنها تُعَدُّ تكميلاً لذاته ، وهذا هو الحب الحقيقى « أن يحب الشيء لذاته لا لحظٍّ يُنال منه وراء ذاته ، بل تكون ذاته عين حظِّه». ويضرب المثل لذلك بحب الجمال والحسن ، فإن كل جمال محبوب عند مُدْرِكِ الجمال . ولا أحد ينكر كون الجمال محبوباً بالطبع . فإن ثبت أن الله جميل كان - لا محالةَ - محبوباً عند من انكشف له جماله وجلاله كما قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ »[1] . وجمال كل شيء وحُسْنه أن يكون حاصلاً على كماله اللائق به .

ثم يُبيِّن الغزالى أن المحبة قد تتأكد بين شخصين ، لا بسبب جمال ظاهر ؛ ولكن بمجرد تناسب الأرواح كما جاء فى الحديث الشريف :

« الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ »[2] .

وباختصار فإن أسباب الحب - فى نظر الغزالى - ترجع إلى خمسة أسباب :

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه - كتاب : الإيمان .

(٢) رواه البخارى فى صحيحه - كتاب : أحاديث الأنبياء .

١ ـ حب الإنسان وجودَ نفسه وكماله وبقائه .

٢ ـ حب الإنسان لمن أحسن إليه .

٣ ـ حب الإنسان لمن كان محسناً فى نفسه إلى الناس وإن لم يكن محسناً إليه .

٤ ـ حبه لكل ما هو جميل فى ذاته .

٥ ـ حبه لمن بينه وبينه مناسبة خفيَّة فى الباطن .

فإن كانت هذه الصفات فى أقصى درجات الكمال كان الحب - لا محالةَ - فى أعلى الدرجات .

ويخلص الغزالى من ذلك كله إلى أن هذه الأسباب كلها لا يُتصوَّر كمالها واجتماعها إلا فى حق الله تعالى . فلا يستحق المحبة - بالحقيقة - إلا الله سبحانه وتعالى ، ولا محبوب - بالحقيقة - عند ذوى البصائر إلا الله تعالى وإنَّ أجلَّ اللذات وأعلاها يتمثل فى معرفة الله تعالى والنظر إلى وجهه الكريم ، وأنه لا يُتصوَّر أن يُؤْثِرَ إنسانٌ عليها لذة أخرى ، اللهمَّ إلا من حُرِمَ هذه اللذة . ومن هنا يؤكد القرآن الكريم على أن المؤمنين - وحدهم - هم الأشدُّ حباً لله : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ (١) ؛ لأنهم الذين يدركون - أكثر من غيرهم - اشتمال الذات الإلهية على جميع الكمالات اللائقة بها .

---

(١) سورة البقرة : ١٦٥ .

وهكذا يتدرج الحب لدى الناس فى دوائر عدة ولكنها لا تكتمل إلا إذا انتهت إلى خالق الوجود ومقلِّب القلوب . وهذا هو الحب الحقيقى الذى ينبغى أن يُؤْثِرَهُ الإنسان على كل حب سواه . ومن جانب آخر فإن هذا الحب من شأنه أن يضفى الحب والجمال على كل ما عداه . ويقول القرآن الكريم عن الدوائر التى يدور حولها الحب لدى الإنسان:

﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِىَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ (١) .

ولا يعنى ذلك أن دوائر الحب المختلفة لدى الإنسان مرفوضة ، وإنما الأمر الذى لا ينبغى أن يكون أن تحجب هذه الدوائر عن الإنسان « الحب الحقيقى » والذى يتمثل فى حب الله تعالى . ويقول القرآن الكريم مخاطباً الرسول الكريم :

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ (٢) .

وهذا يعنى أن الحب فى هذه الحالة لا يكون من جانب الإنسان لله

---

(١) سورة التوبة : ٢٤ .

(٢) سورة آل عمران : ٣١ .

فقط ، بل من جانب الله للإنسان أيضاً . ويشير حديث شريف آخر إلى أن الله إذا أحب عبداً جعل أهل السماء يحبُّونه ، وجعل له القبول فى الأرض (١)

* * *

(١)رواه مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال : إنى أحب فلاناً فأَحِبَّهُ . قال : فيحبه جبريل . قال : ثم ينادى فى السماء فيقول : إن الله يحب فلاناً فأحِبُّوه ، فيحبه أهل السماء . قال : ثم يُوضع له القبول فى الأرض » . (صحيح مسلم - مشكول - ج ٨ ص ٤٠ - طبعة محمد على صبيح) .

obeikandl.com

(٢٦)
(وتعاونوا على البِرِّ والتقوى)

الإنسان بطبيعته لا يستطيع أن يعيش وحده ، فهو فى حاجة إلى غيره من بنى البشر ، ليس فقط من أجل تبادل المنافع والاحتياجات المادية الأساسية التى تمدُّه بأسباب الحياة واستمرارها ، وإنما كذلك لتطوير شخصيته ، وتقدُّمه فى معارفه وزيادة علمه ، وتهذيب أخلاقه ، وتقويم سلوكه . وهذا كله لا يمكن أن يحدث إلا إذا كان هناك تعاون وثيق بين الناس فى كل ما يعود عليهم وعلى مجتمعهم بالخير . ولا يُتصوَّر أن يحدث أىُّ تقدُّم فى المجتمع إلا إذا تضافرت الجهود وتوحَّدت من أجل بلوغ الأهداف المشتركة للوصول بالمجتمع إلى الرقىِّ المأمول والتقدُّم المنشود .

ومن ذلك يتضح أن التعاون المطلوب ليس على المستوى المادى فقط وإنما على جميع المستويات المعنوية التى من شأنها الوصول بالإنسان إلى استكمال شخصيته الإنسانية . وقد اهتم الإسلام اهتماماً بالغاً بهذا الجانب لأنه يشكِّل الأساس للجوانب المادية الأخرى . ولذلك يقول القرآن الكريم :

﴿وتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ والتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا على الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[1].

والبِرُّ مفهوم شامل لكل أنواع الخير . وقد فسَّر القرآن الكريم معنى البر بالتفصيل فى آية أخرى بقوله :

﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾[2].

وهذه الآية توضح لنا أن البِرَّ يشمل كل أنواع الخير التى يتصورها الإنسان ، والتى يتسع معناها ليشمل عناصر العقيدة والعمل والأخلاق ، وتُبيِّن لنا - أيضاً - أن مفهوم البِرِّ الذى يعنيه القرآن الكريم ينصبُّ على حقائق الأمور وجوهرها ولا يتعلق بالأشكال والمظهريات. وهذا البِرُّ بهذا المفهوم الشامل يتساوى مع مفهوم التقوى؛ ولذلك نجد ختام الآية يقول :

---

(١) سورة المائدة : ٢ .

(٢) سورة البقرة : ١٧٧ .

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ .

ومن هنا يمكن القول : إن البِرَّ يشمل كل عمل يقوم به الإنسان فى هذه الحياة - سواء كان هذا العمل دينيًّا أو دنيويًا - طالما قصد به الإنسان وجه الله ، ونفع الناس ، ودفع الأذى عنهم ، وذلك يُعَدُّ - أيضاً - تقوى لله سبحانه وتعالى . فالتقوى والبر والعمل الصالح تتعانق معانيها ، وتتلاحم مراميها ، وتنصهر فى بوتقة القرب من الله تعالى .

وبالنظر إلى هذا المعنى الشامل للبر وللتقوى كان الأمر القرآنى بالتعاون على البر والتقوى لشمول ذلك لكل ما يتصل بصلاح الدين والدنيا للإنسان . وهذا التعاون من شأنه أن يرتقى بالإنسان فى الاعتقاد والفكر والأخلاق والسلوك الإنسانى ، ومن شأنه كذلك أن يعمل على تطوير الحياة وتقدُّمها وازدهارها على جميع المستويات . فالأساس الروحى إذا كان سليماً فإنه يشكِّل القاعدة القوية والركيزة الصلبة لكل تقدُّم مادىّ .

وقد اهتمت السُّنَّة النبوية كذلك اهتماماً واضحاً بقضية التعاون على الخير لما له من أثر كبير فى تنمية الحياة . فالله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه . ويد الله مع الجماعة ، ويشبِّه النبى ﷺ المؤمنين فى تَوادِّهِمْ وتَراحُمِهِمْ وتَعاطُفِهِمْ بالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضوٌ تَدَاعَى له سائرُ الأعضاء بالسَّهَرِ والحُمَّى [1] . فالناس فى المجتمع

(١)رواه مسلم فى صحيحه - كتاب : البر والصلة والأدب .

يشكِّلون فريقاً متكاملاً يقوم كل فرد فيه بدور يسهم به فى دفع مسيرة الحياة فى المجتمع .

وكل عمل يدفع إلى العمل والإنتاج فى شتَّى المجالات يُعَدُّ من البِرِّ ، ومن « المعروف » الذى لا يجوز الاستهانة به ، مهما بدا ضئيلاً، حتى وإن كان شيئاً رمزيًّا فإن له مردوداً إيجابيًّا لا يجوز التقليل من شأنه . وفى ذلك يقول النبى ﷺ : « لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئاً وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ »(١) . أى : بوجه بشوش .

وهذا كله يُبيِّن لنا مدى حرص النبى ﷺ على تهيئة المناخ المناسب للتعاون المثمر بين الناس لما فيه خيرهم وسعادتهم .

والإسلام عندما يخاطب الفرد فإنه يخاطب فيه فطرته الصافية ، وسريرته النقية ، وضميره الذى لم تَشُبْهُ شائبة .

ومن هنا عندما سئل النبى ﷺ عن البِرِّ والإثم قال للسائل :

« اسْتَفْتِ قَلْبَكَ . الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ ، والإِثْمُ مَا حَاكَ فى النَّفْسِ وَتَرَدَّدَ فى الصَّدْرِ ، وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ »(٢) .

* * *

(١) رواه مسلم فى صحيحه - كتاب : البر والصلة والأدب .

(٢) رواه الدارمى فى سننه - كتاب : البيوع .

(٢٧)

(إذا استعنت فاستعن بالله)

تتفق عقائد الإسلام وتشريعاته مع ما يقرره العقل السليم ، ولا يوجد أى تناقض بين ما يقرره الإسلام وما يقرره العقل ، ولا يجوز أن يوجد مثل هذا التناقض . وقد أدرك هذا المعنى أعرابىٌّ بسيط عندما سئل : لِمَ آمنتَ بمحمد ؟ فقال : ما رأيتُ محمداً يقول فى أمر : «افعلْ» والعقل يقول : لا تفعلْ ، وما رأيتُ محمداً يقول فى أمر : «لا تفعلْ » والعقل يقول : افعلْ .

ومن الأمور التى يقررها العقل السليم أنه لا ينبغى أن يلجأ الإنسان إلى طلب العون إلا ممن يملك بالفعل تقديم هذا العون . أما أن يلجأ الإنسان إلى من لا يستطيع أن يُعين نفسه فهذا من العبث المرفوض . ومن أجل ذلك يرفض الإسلام رفضاً قاطعاً كل أعمال الدجل والشعوذة والاعتقاد فى الخرافات والأوهام ، واللجوء إلى مدَّعى الولاية أو من يزعمون علم الغيب ، أو الاستعانة بأصحاب الأضرحة والقبور من أجل طلب الشفاء أو هلاك الأعداء أو قضاء الحوائج . فكل هذه أمور لا يقبلها عقل ولا دين .

وموقف الإسلام فى هذا الصدد موقف واضح لا يحتمل التأويل وهو الاستعانة بالله وحده بعد اتخاذ جميع الأسباب الموصِّلة إلى الأهداف المرجوَّة . فالله سبحانه وتعالى هو وحده الذى يعلم الغيب، وهو وحده الذى بيده مقاليد كل شىء : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ (١) ، وهو سبحانه قريب من عباده ، وليس فى حاجة إلى وساطة من أى نوع .

والقرآن الكريم يخبرنا بذلك فى خطاب موجَّه إلى النبى - عليه الصلاة والسلام - : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ (٢) . ويُبيِّن لنا القرآن - أيضاً - أن الله أقرب إلى الإنسان مما يتصوَّر :

﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ (٣) .

وإذا كان الأمر كذلك - وهو كذلك بالفعل - فالله وحده هو المستعان : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (٤) ، وهو وحده الذى يستجيب للدعاء ، والكفيل بقضاء الحوائج وضمان الأرزاق : ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (٥) . وهذا يعنى أنه لا توجد حواجز من أى نوع تحول بين الله والإنسان ؛ فالصلة بينهما مباشرة .

---

(١) سورة الجن : ٢٦ ، ٢٧ .
(٢) سورة البقرة : ١٨٦ .
(٣) سورة ق : ١٦ .
(٤) سورة الفاتحة : ٥ .
(٥) سورة غافر : ٦٠ .

وتأكيداً لذلك يقول النبى ﷺ :

« إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ » (١) .

وبذلك يغلق الإسلام الباب تماماً فى وجه أى مخلوق يتحكم باسم الدين فى رقاب العباد ، أو يدَّعى أنه يستطيع أن ينفعهم أو يكشف عنهم الضرَّ . فلا نفعَ ولا ضرَّ إلا بإرادة الله الذى خلق الأسباب والمسبَّبات ، وأنعم علينا بالعقل الذى يرشدنا إلى الطريق القويم . وإدراك ذلك يعنى تحرير المؤمن بعقيدة التوحيد من الخوف من أى سلطة منظورة كانت أو غير منظورة .

ويدعو الإسلام إلى تفسير الظواهر والأحداث تفسيراً عقليًّا يتفق مع مقررات العقل وحقائق العلم . وقد وقف النبى - عليه الصلاة والسلام - بحزم فى وجه تفسير الظواهر تفسيراً مخالفاً للعقل . فعندما مات ابنه إبراهيم تَصَادَفَ أنْ كسفت الشمس فى ذلك اليوم . فقال بعض الصحابة بحسن نية : إن كسوف الشمس يمثل مشاركة للنبى فى حزنه على موت ابنه إبراهيم . وقد واجه النبى ﷺ ذلك - بحسم قاطع - قائلاً : « إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ مِنْ آيَاتِ اللهِ ، وَإِنَّهُمَا لَا يَنْخَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمَا فَكَبِّرُوا وَادْعُوا اللهَ وَصَلُّوا وَتَصَدَّقُوا » وقال أيضاً : « إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَا يَكْسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا

(١) رواه الترمذى والإمام أحمد .

لحياته...»[1].

فالظواهر الطبيعية لا يجوز أن تُفَسَّرَ إلا بأسبابها الحقيقية. والقرآن نفسه حين يتحدث عن الشمس والقمر يُبيِّن لنا أنهما يسيران وفقاً لقوانين وسُنن إلهية. ونقرأ ذلك فى قوله تعالى:

﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[2]. وغير ذلك من آيات مماثلة.

وهكذا يحترم الإسلام العقل والعلم، ويرفض الخرافة والجهل. وهذا الموقف الإسلامى الواضح من شأنه أن يفتح باب العلم الصحيح على مصراعيه، ويسدَّ على الخرافة والوهم والجهل كل الأبواب. والأمر المؤسف أنه لا يزال هناك كثير من الخرافات والأوهام تنتشر فى عالمنا العربى والإسلامى، يقف خلف انتشارها فريق من الناس من أصحاب المصالح الذاتية الذين يستغلون طيبة وسذاجة عامة الناس ويستنزفون أموالهم زوراً وبهتاناً. وانتشار مثل هذه الخرافات والأوهام فى المجتمع من شأنه أن يعطل جهود التنمية ويحول دون تقدُّم المجتمعات.

---

(١) رواهما البخارى ومسلم فى صحيحيهما - كتاب الكسوف. انظر أيضاً ص ٢٤١ من هذا الكتاب.

(٢) سورة يس: ٤٠.

ومن هنا فالمسئولية التى يتحملها علماء الدين وقادة الفكر فى المجتمع تتمثل فى بذل الجهود الكبيرة لنشر التوعية السليمة فى أوساط الناس وتنوير الأذهان بالأفكار الإيجابية والقيم الدافعة لتقدُّم المجتمع، على أن تتواكب هذه الجهود جنباً إلى جنب مع جهود أخرى لمحو الأمية الأبجدية من البلاد ، والتى تُعَدُّ وصمة عار لابد من التخلص منها . فلم يَعُدْ يليق بالأمة الإسلامية أن يكون فيها أميٌّ واحد فى القرن الجديد لأن دينها هو دين العلم والمعرفة ، ورسولها يُعَدُّ أول مَنْ بذل جهوداً لمحو أمية المواطنين عندما كان يفرج عن كل أسير من أسرى غزوة بدر إذا قام بتعليم عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة . وبمزيد من التوعية والتنوير ومحو الأمية الأبجدية والدينية والثقافية يمكن القضاء على كل أشكال الدجل والشعوذات والأوهام والخرافات ، وبذلك نسير بمجتمعاتنا نحو التقدُّم المنشود والازدهار المأمول فى عصر لم يعد فيه مكان إلا للأقوياء الذين يستخدمون عقولهم ويملكون ناصية العلم والمعرفة .

***

(٢٨)
الإنسان والأعياد

حياة الإنسان فى هذه الحياة تُعَدُّ سلسلة متواصلة من الكفاح فى مواجهة الكثير من العقبات التى تقف فى سبيل تحقيق آمال وطموحات البشر . والإنسان بطبيعته إذا حقق إنجازاً شعر بفرح غامر وسعادة بالغة . وحتى يستعد لتحقيق إنجاز جديد فهو فى حاجة إلى وقفة يلتقط فيها أنفاسه ، ويستريح من عناء العمل ويرفِّه فيها عن نفسه، ويتزوَّد بشحنة جديدة لاستئناف العمل من جديد . وهذه الوقفة تُعَدُّ محطة يستريح فيها قليلاً قبل أن يتابع سيره فى طريق الحياة . ومثل هذه المحطات تمثل بالنسبة للشعوب أعياداً يحتفلون بها ويبتهجون ، ويعبِّرون عن سعادتهم بما تحقق ، ويأملون فى تحقيق المزيد فى المستقبل .

وقد ابتكر الناس الكثير من الأعياد تحت العديد من الأسماء ، وفى العديد من المناسبات . وقد تكون هذه المناسبات دينية ، أو وطنية ، أو غير ذلك من مناسبات . فهناك - مثلاً - فى العديد من الدول أعياد تحت مسمَّيات مختلفة مثل عيد الربيع ، أو عيد الشكر ، أو عيد الحصاد،

أو عيد الحب ، أو عيد الأم ، وهناك - أيضاً - أعياد قومية للتحرير أو الاستقلال وذلك بالإضافة إلى الأعياد الدينية الكثيرة . ولا تخلو أمة من الأمم من أعياد تحتفل بها وتعلن فيها عن فرحتها وابتهاجها ، وتحفزها إلى تنشيط ذاكرتها وترسيخ الثقة والاعتزاز بأمجادها وتقوية عزائمها على مواصلة السير نحو خير الأمة وتقدُّمها وازدهارها . وهذه كلها أمور إيجابية تعبِّر عن حاجة الإنسان الفطرية إلى مثل هذه الأعياد لتكون عوناً للإنسان على التزوُّد بطاقة جديدة لاستئناف السير ومواصلة الكفاح .

ونظراً لأن الأديان قد جاءت لمصلحة الإنسان ومن أجل خيره وسعادته فإنها قد اشتملت على أعياد يحتفل بها أصحاب كل عقيدة تلبية لهذه الحاجة الفطرية لدى الإنسان . وبعض هذه الأعياد حدَّدته الأديان وبعضها الآخر حدَّده الناس وجعلوا منها أعياداً دينية . ولم يشذَّ دين من الأديان عن هذه القاعدة .

ومن هنا وجدنا الإسلام يلبِّى هذه الرغبة ويتجاوب مع هذه الفطرة الإنسانية . ومن أجل ذلك وجدنا أن النبى ﷺ عندما قدم المدينة وجد لدى الأنصار يومين يلعبون فيهما فقال :

« مَا هَذَانِ اليَوْمَانِ ؟ قَالُوا : يَوْمَانِ كُنَّا نَلْعَبُ فِيهِمَا فى الجَاهِلِيَّةِ . فَقَالَ: إِنَّ اللهَ قَدْ أَبْدَلَكُمْ بِهِمَا خَيْراً مِنْهُمَا : يَوْمَ الأَضْحَى وَيَوْمَ الفِطْرِ »[1] .

---

(١) رواه أبو داود فى سننه - كتاب : الصلاة .

ومن الطبيعى أن تحتفل كل أمة بأعيادها وتعلن عن ذلك بالزينات والألعاب والأغانى واللهو البرىء والمرح ، والتزاور بين الأقارب والأصدقاء . ويُروى أن أبا بكر - رضى الله عنه - دخل على ابنته عائشة أم المؤمنين - رضى الله عنها - وكان يوم عيد ، وعندها جاريتان تغنِّيان بما تقاولت به الأنصار يومَ بُعَاث . فقال :

« أَمَزَامِيرُ الشَّيْطَانِ فى بَيْتِ رَسُولِ اللهِ ؟ فَقَالَ النَّبِىُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : يَا أَبَا بَكْرٍ إِنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ عِيداً ، وَهَذَا عِيدُنَا » [1] ، وقوله ﷺ : «لِتَعْلَمَ يَهُودُ أَنَّ فى دِينِنَا فُسْحَةً وَأَنِّى بُعِثْتُ بِحَنِيفِيَّةٍ سَمْحَةٍ » [2] .

ومن المرويَّات - أيضاً - أن النبى ﷺ قد سمح للسيدة عائشة أن تشاهد الأحباش وهم يلعبون بحِرَابِهم فى يوم عيد [3] .

ومن ذلك يتضح أن الإسلام دين يتجاوب مع فطرة الإنسان ، ولا يرفض شيئاً يجلب للإنسان السعادة فى حياته . ومن هنا كان هذان العيدان اللذان منحهما الله للمسلمين - وهما عيد الفطر وعيد الأضحى - بمثابة مكافأة لهم على ما قاموا به من أداء ما عليهم من فرائض دينية .

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه - كتاب العيدين .

(٢) رواه الإمام أحمد فى مسنده ، من حديث عائشة رضى الله عنها .

(٣) رواه البخارى فى صحيحه - كتاب : النكاح .

فعيد الفطر يأتى بعد أداء فريضة الصوم . ومن حق المسلم أن يفرح بأدائه لواجبه وانتصاره فى هذا الشهر على شهواته وأهوائه . ولذلك يقول النبى ﷺ :

« لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ : فَرْحَةٌ عِنْدَ إِفْطَارِهِ ، وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ »[1] .

وهذا يعنى سعادة الإنسان بأدائه لواجبه فى هذه الرحلة الروحية المتمثلة فى الصوم من ناحية وسعادته بحسن الجزاء المأمول من الله من ناحية أخرى .

أما العيد الثانى الذى منحه الإسلام للمسلمين فهو عيد الأضحى الذى يأتى - أيضاً - بعد الفراغ من رحلة أخرى روحية وبدنية معاً وهى رحلة الحج إلى بيت الله الحرام . وهنا - أيضاً - من حق المسلم أن يحتفل بأداء هذا الواجب ويفرح باكتماله ، ويشاركه روحيًا فى هذه الرحلة كل المسلمين فى جميع البقاع الذين تهفو قلوبهم وتتوق أرواحهم إلى القيام بهذه الرحلة المباركة .

ومن الأمور المهمة التى لا ينبغى أن تغيب عن الأذهان أن الإسلام يبدأ الاحتفالات بهذين العيدين بتجمُّعات روحية فى صلاة العيد . وبذلك يكون الترابط الأخوى بين الناس يتبادلون التهانى ، ويُشركون غيرهم من الفقراء والمحتاجين فى السعادة ببهجة العيد بما يمنحونه لهم

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه - كتاب: التوحيد .

عن طيب خاطر من زكاة للفطر ومن صدقات تطوعية تقرُّباً إلى الله ، ومن ناحية أخرى يُوَثِّق المسلمون صلتهم الروحية بالله سبحانه وتعالى فى مفتتح الاحتفالات بصلاة العيد .

وإذا كان الإسلام قد أباح للمسلمين أن يفرحوا ويبتهجوا بالعيد ، ويعبِّروا عن ذلك بالزينة والمرح والترفيه عن النفس فى الحدود المقبولة ، فإنه لا يجوز الانحراف بهذه البهجة إلى أمور سلبية تفسدها سواء كان ذلك بالإسراف فى تناول الأطعمة بطريقة تصيب الإنسان بالتخمة وتضرُّ بصحته أو بعادات وتقاليد تثير الأحزان والهموم كزيارة القبور - على سبيل المثال - أو بأفعال تتنافى مع تعاليم الإسلام السمحة وقيمه النبيلة التى تهدف كلها إلى خير الإنسان وسعادته فى دنياه وأخراه .

* * *